حديقة الله

طارق لحمادي

حديقة اللَّه

قصص قصيرة

الناشر مركز سلطان بن زايد للثقافة والإعلام
أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة

حديقة الله
قصص قصيرة
طارق لحمادي
عدد الصفحات 100
الناشر مركز سلطان بن زايد للثقافة والإعلام أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة
الترقيم الدولي: ISBN **978-9948-23-481-4**
الإخراج الفني: سعاد حسنة

حقوق الطبع محفوظة للناشر
copyright all rights reserved
الطبعة الأولى 2017 - 1438

إصدرات

مركز سلطان بن زايد للثقافة والإعلام
The Cultural and Media Centre for H.H. Sheikh Sultan Bin Zayed Al Nahyan
ص ب: 5727 **أو** 6420 **فاكس:** 0097126663088 **هاتف:** 0097126666130
Website: www.cmc.ae Email:administration@cmc.ae

الإهداء:

إلى الغرباء..

إليهم أرفع هذا الكتاب..

الطّريق

- كيف أبدأ؟ !..

تجلّى الفراغ، لم يكن ثمّة أحد غيره، التبس عليه الأمر، بدا كأنه مشدود الروح إلى قوة مجهولة سحرية لا يدري كيف سيتخلص منها، أرهف السمع إلى أصوات بدائية لم يتبيّن مصدرها، وبخطوات ثقيلة يائسة راح يقطع الطريق، يدرك أنّ لا هدف له فلا شيء ينتظره ولا مكان يذهب إليه..

سكنته الهواجس، اشتعل التيه في عينيه المملوءتين بالعطش، وقال فيما قاله لنفسه:

- عليّ أن أنتصر..

هو لم يبدأ بعد، ولم يفهم لم جاء إلى هنا؟.. ولا كيف انتهى إلى هذه النهاية التي يطلب فيها وجه بدايته؟.. فقد كان في الهزيع الأخير من الليل، حيث تلتحف البيوت والطرقات والأشجار بالسكون، ويستسلم كل شيء إلى هذا العمى الحائر، يفتّش بلا جدوى عن أيّ خطوة تقوده إلى النور، ليفهم، وليدرك، وليعرف...

عليه أن يبدأ، فلا أهمية لشكل البداية مادامت ستخرجه ممّا هو فيه، وكي يفعل ذلك عليه أن يتذكّر تاريخه الطويل الحافل، وأن يمدّ بين لحظته تلك وماضيه جسراً من التداعيات والأسئلة

والتأمـلات والبـكاء والضحـك والحنـين والأسـفار، وفي خـلال ذلـك كلـه.. لا يجـب أن تغنيـه حادثـة عـن أخـرى، أو يشـغله وقـت عـن آخـر، أو ينتـصر للحظـة ضحـك عـلى حسـاب لحظـة بـكاء، عليـه أن يتعامـل بمقيـاس العـدل الصـافي، ولتكـن المسـاواة هـي الـروح التـي يحتكـم بهـا ولهـا..

شـعر بحجـم الحمـل وثقـل المهمّـة وعظمـة المسـؤولية، فتسرّبـت إلى حلقـه هـذه المـرارة التـي لم يجرّبهـا قبـل اليـوم، واندلعـت في عينيـه الصغيرتـين حرائـق الرعـب التـي يتذوقهـا لأول مـرة، فتسـاءل بيـأس قا تل :

- كيف تنطوي البداية على كل هذا الجنون؟ !...

لا نقطـة محـدّدة واضحـة جليّـة يبـدأ منهـا، فهـو لا يعـرف عـن الميـلاد أكثـر ممّـا تعرفـه العامـة، وحتـى لـو عـرف فـإن ذلـك لـن يضيـف لتجربتـه معنـى، ولـن يكسـبه أدنـى فهـم لمـا هـو فيـه، ومنـه فقـد أقنـع روحـه بهبـاء تلـك البدايـة، فهـو يخـسر فهمهـا، وهـي لا تعنيـه بضبابيتهـا في هـذا التاريـخ الطويـل، حسـبه أن يكـون قـد تنبّـه إليهـا ووضعهـا موضـع الوعـي فلـم تثمـر، ولم تـزد عـلى كونهـا نقطـة وجـود لا أكثـر..

وجـد نفسـه يتعثّـر بالطريـق المظلمـة الفارغـة كـما يتعثّـر بشـحّ الذكريـات والحـوادث المقفـرة، لا أمـل يسـتهدي بضوئه القلب وسـط سراب الليـل وصحـراء الأمـاني، عليـه أن يجهـد النفـس في اسـتنطاق أيّ حادثـة تخطـر بالبـال، أو خاطـر يمـر ولـو بطريـق الصدفـة..

ومـن خيبتـه تلـك، طفـق يتسـاءل عـمّا انتهـى بـه إلى هنـا، ووضعه في هـذه التجربـة الغريبـة المحـيّرة، فـرأى مـن الحكمـة أن يتـصرّف بـبراءة مطلقـة لعلّـه يفهـم مـن خـلال البسـاطة وجـه الحـقّ، ويـدرك

أسرار المعنى، وينفذ ببصيرته إلى أتون المعرفة الصافية النقيّة، فتمثّل نفسه بعمر الطفولة، فرد أجنحة خياله في فضاء اللهو الفسيح، رأى رؤية العين هذه البرية المفتوحة على الآفاق، سمع للربيع همساً لا يخطئه القلب، الخضرة والينابيع وطريق النحل، طيور الدوريّ في شقشقتها وطيرانها الأفقي السريع، أسراب السنونو حين تحلّق في ارتفاعات لا متناهية، ثم ترتدّ كالسهام في اندفاعات عمودية ثانيةً أجنحتها، مناورة بحركاتها السريعة المتداخلة المذهلة، الصيف باشتعاله الكامل وشمسه الحارقة، زمهرير الشتاءات الطويلة والمطر يهمي موشوشاً بلغة بكائية حزينة، ثم صوت المعلّم وقد قطع حبل اللهو بسكّين الجدّ...

كأنه بدأ يتعلّم واستكان إلى حياة أكثر تنظيماً، ملّ التجربة بكل ما فيها من ضغط وإرهاق، اختلف إلى تجارب الحياة في سعي حثيث، فجرّب العمل والحبّ، ذاق مرارة الفشل وعانى ويلات الفقر، مسّته اللذة بيدها الحانية، ثم أقبل على الزواج كما تقبل عليه الأنعام في مواسم سفادها، ذابت أحزانه في ما يتقاطع معها من أفراح، فعرف سحر الأبوّة اللافت، وشرب جرح الموت وعاناه، هكذا تواترت روحه بين سواد العتمة وبياض النور..

كل ذلك حدث...

حدث بسرعة الكهرباء أو الضوء أو الصوت أو ربما في زمن يفلت من قدرة القياس، فلا يكاد يمنحه معنى لبداية واضحة المعالم، بيّنة الأحداث، جليّة التفاصيل، فانفجر متسائلا:

- كيف أبدأ؟ !...

بدت الحياة على طول ما عاشه مجرّد نقطة واحدة يتجمّع

فيها كل صخب وضجيج الرّحلة، لمحة واحدة تغني الرائي عن آلاف الحوادث وملايين الصور، وقال لنفسه بهمس لم يسمعه سواه:

- ما الذي يراه ويسمعه من يُقبل على الموت؟.. من يتجلّى له الموت بوجه كامل في مباغتة تُسْقِطُ من يد المَبَاغَتِ فكرة الاستعداد وفلسفة الوقت وأماني الاحتمال ... لو.... كيف نتواجه مع الموت مثلا؟.. أيّنا يتحرّش بالآخر، وأيّنا يبدي خوفه وندمه وخسرانه؟.. وأيّ الصور التي ستندفع كشلال نحو مقدمة الوعي؟.. وهل سنلقى لها إجابات قبل أن يعمّ الظلام هنا وينبلج النور هناك؟ !...

لستُ أدري.....

ولطمت وجهه نسمة حرّية وهو يجاهد الظلام في سيره، فتنهد قائلا:

- ما أقصر الطريق التي لا تنتهي...

اشتعل إيمانه بأن لا بداية له، لا شيء يدل على البدء، ولا قدرة له على وضع يد العقل على ما يمكن أن يكون ضوءاً حقيقياً كان قد انطلق منه، وفي غمار السير والتأمل عزا غياب النهايات إلى عللها، فهو لا يبدأ ولا ينتهي...

غير أنّ الموت صدمه بقوة وجود جديدة، ووضعه في حالة وعيه الكامل، عليه أن يعاود التفكير ويقاوم احتمالات الخطأ داخل فهمه، ثم ينظر إلى هذا التقسيم الذكي بين وجهيّ الحياة والموت فلربما عرف من جدلهما شكل البداية واطمأن قلبه لما هو فيه، وتجلّى له الامتلاء بفيض يعرّفه إلى تلك القوة الكامنة في روحه، والتي ستعرّفه بدورها إلى ما يتحكّم فيها. وانقض

كحـدأة جارحـة عـلى الليـل وعـلى الطريـق، تخلّـص مـن عثراتـه وطفـق يمـشي بسرعـة، أو خيّـل إليـه أنهـا سرعتـه، اجتهـد في تحديـد معـالم الطريـق بهـذه الشـجرة النابتـة في أقـصى يمينـه، وتراوح سـيره في تعثّـر وبـطء شـديدين، وسرعـة وهرولة، وحـرص عـلى أن لا يعترض سـبيله أحـد، أو تتمكّـن مـن رؤيتـه عـين. كان يريـد أن يكـون بكامـل الوحـدة المرجـوة، وقـال في نفسـه: «... إنّ ذلـك سيسـاعده عـلى فهـم أنضـج، سـتزيده الشـجرة التـي حـدّد بهـا معـالم سـيره بعضـاً مـن يقـين، وسيسـتدلّ عليهـا وبهـا، بأوراقهـا الخـضراء وبخلوّهـا مـن أيّ ثمـرة. لكنـه سرعـان مـا ينسـى ليعـود إلى هـذا التاريـخ البعيـد الحافـل بألـوان الحيـاة، المصطخـب بمـوج الحركـة الهـادرة، مواصـلاً سـيره الـذي لا ينتهـي، وتعـود الشـجرة مـن جديـد معترضـة طريقـه فتذكّـره بـه وبهـا، ويلـوّح لـه ثمرهـا الفـضّي تحـت شـعاع لا يـدري مصـدره، فيـأكل ويواصـل رحلتـه ضاحـكاً متسـائلاً:

- من يجبرني؟ !...

لا يعـرف لأسـئلته إلا الصـدى فيسـتمر، والشـجرة تتغـيّر تحـت ظـرف لا يـكاد يحسّـه، لكنـه يراهـا شـجرة أخـرى قـد طـارت عنهـا أوراقهـا وهجرهـا ثمرهـا وأشـعل هيكلهـا هـذا الحـزن القمـيء والفـراغ العـاري.

- هذه شجرة أخرى، لربّما ضيّعتُ طريقي فعلا..

كانـت الطريـق قـد انحرفـت بـه قليـلا عـن هدفـه الـذي لم يعرفـه بعـد، بـدا كأن غبـش الليـل بـدأ يتوالـد، تسـلّلت نسـمات بـاردة فلفحـت وجهـه..كأنّ الشـجرة واحـدة، واكتشـف تحـت شـحّ هـذا الضـوء الصباحـي أنـه كان يـدور في طريـق مقفلـة، وهاهـو خطـأه ينجيـه مـن ذلـك الروتـين الأعمـى والتكـرار المملّ...

انحـرف بضـع سـنتيمترات، ثـم واصـل سـيره، فيـما راح الضـوء يزيـد في إشـعاعه فيكشـف لـه شـكل المـكان عـلى حقيقتـه، اسـتدار خلفـه ليتأكّـد.. نعـم كانـت طريقـه دائريـة مقفلـة، تنبـتُ عليهـا شـجرة واحـدة، بـدت لـه بكـمال يتمهـا.. لا أوراق ولا ثـمار، هيـكل شـاحب خليـق بـأن تكـسره الريـح في أول هبـوب، عـاد ينظـر إلى الأمـام، فبلغـه سـطوع الضـوء بحـدّة بياضـه وسـمع أصـوات بـكاء قريبـة منـه، رأى بعـض الرجـال وهـم يتدافعـون نحـوه، فكّـر في الهـروب، لكنـه أدرك أنّ احتـمال نجاتـه ضئيـل جـداً، فاستسـلم لأيديهـم ببعـض المقاومـة اليائسـة وكل العجـز الـذي لحقـه، ثم سـمع مـن جديـد تداخـل بـكاء بتضرعـات بخشخشـة نعـال، وغشـيه ضوء لم يـره في حياتـه قـط، فاستسـلم لنومـه.

هامش لا علاقة له بالنص

من أين لنا أن نعرف كيف بدأ؟ !..

موت الذّبابة

كان يجب أن أموت في ذلك الصباح من عام 1988، وهو العام الذي شهدتُ فيه بداية قدرتي على الرؤية النقيّة الصادقة، ففي لحظة واحدة شرب اليأس القاتل كل قطرة أمل في روحي، لم تعد الأشياء كما كانت، وبدأت الحياة تتضّح شيئا فشيئا، وتتجلّى لي من وراء غيوم هذا المنطق الشرك القاتل، لذلك فقد رحتُ أتبع نفسي بخُفّ والدتي المهترئ طامعاً في قتلي، لكني حين أحطّ على ستارة النافذة لا أترك لنفسي فرصة صيدي، فأنا أطير بسرعة غريبة وبحركة خاطفة يتحرّك جناحاي فأعانق الفضاء بحثاً عن مساحات أكثر أمناً.. هناك فلتة ضوء تسيل من كوّة.. أطير تحتها، وهنا أتربّص بالخُفِّ علّني أردِيني قتيلاً أو جريحاً.. لا تكفّ والدتي عن الشّكوى والخوف:

- ستتلفُ الخُفّ بتهوّرك...

في غمرة الصيّد لا أجيب، فكل تركيزي يقع على قتلي..

أطاردني هذا الصباح دون أن أعرف كيف ستكون نهاياتي، أطير بسرعة وحذر وأحطّ على كل شيء، والخُفّ في يدي يترقّب، وقلبي يتربّص للقتل، فأنا أشعر بالقلق الذي أُحْدِثُهُ، أعرفُ حجم الدمار الذي ألحقه بالأشياء التي أحطّ عليها.. الطّفيليّ الذي أقضي عمري به، القاذورات والأوساخ التي تعلق بجناحيّ وأرجلي، وأحياناً كنتُ أغيظ نفسي بما أقوم به، أقفُ على حافّة الطاولة، أدعك رجليّ ببعضهما، ثم ألفّهما وأرفعهما إلى

مستوى أعلى وأكشط مؤخرة رأسي، أعيدهما بعدها إلى وضعهما الطبيعي، ثم أطير، أرتفع في الهواء محرّكاً جناحيّ السريعين الساحرين، أحطّ من جديد على حافة فنجاني أرتشف السكّر، وأرقبُ.

يحدثُ كل هذا بسرعة كهربائية غريبة بحيث لا أستطيع أن أصرعني، فأنا أرفع يدي وأبسطها في الهواء وأنتظر، يصعبُ أن توجّه كفّك إلى حافّة فنجانك بصفعة قويّة وسريعة ما يجعلك تدلق كوب قهوتك، ثم إنّ الحافّة صغيرة، أقل من مليمتر واحد وهو ما لا يوفّر مساحة كافية لضغطي بين راحة يدي وحافّة فنجاني، أمتلئ بالحقد والقلق والغيظ، أقوم من مكاني وقد تَبِعْتُنِي إلى وجه الجدار، أحطّ بحركة بديعة، أنزل على مساحته بطريقة فاتنة..

- الكلبة بنت الكلب تشبه البوينغ 747.

سلسة، رشيقة، معتدّة بجناحيها، تحمل جسمها بإبداع لا يضاهى، تفلتُ من مساحة رؤيتي نحو الجدار العاري، ثم يهجم صوت أمّي:

- خلِّ البشماق(1)...

لا تعرف أنّي تركتهُ منذ خوفها على إتلافه، وهي محقّة فعلاً، فقد لاحظتُ ذلك الشرخ الصغير على حافّته حين نهرتني لأول مرة...

حسناً فردة اليمين ها هي، بقيتُ أحرسني كي لا أطير، وأنا أفتّش عن فردة الخُفّ اليسرى.

- اقتلها بجريدة... قالت أمّي ..

توتّرتُ، فقد تذكّرتُ أنّي لا أقرأ الجرائد، منذ زمن طويل قطعتُ

صلتـي بالقـراءة، ويـوم نـشروا إعلانـاً عـن التوظيـف وجبـتْ مطالعتـه، وقتهـا اكتشـفتُ بالصدفـة ضعـف بـصري واسـتحالة القـراءة في الأمكنـة المغلقـة، رحـتُ أجـرّب فعـل ذلـك تحـت شـعاع الشـمس..

مـن يومهـا توقّفـتُ عـن شراء الجرائـد، فخـلا بيتنـا منهـا إلى الحـدّ الـذي جعلنـي أعـود فاسـتنجد بفـردة خُفّهـا اليسرى.

كنـتُ أحرسـني وأنـا مازلـتُ عـلى الجـدار، أحـكّ رجـليّ وألتفـتُ باحثـاً عـن وجـه أمّي:

- يمّا ما لقيتش الجورنال.

لم تجبنـي، ولم أكـترثْ.. فقـد كنـتُ مشـحوناً بقلـق عاصـف وبرغبة قويـة في قتـلي وإنهـاء هـذا الفصـل المـروّع مـن حيـاة الصبـاح، ثـم الجلـوس إلى نفـسي بكامـل الصفـاء الـذي يتطلّبـه شرب قهـوة. لكـن ذلـك لـن يتأتّـى، ولـن يكـون طالمـا أنـا حـيّ، وطالمـا أنّي أسـبح بهـذا الطـيران الانسـيابي الرشـيق في فضـاء غرفتـي، فأنـا أسرع مـن حركـة يـدي وأكثـر دقّـة في اختيـار زوايـا الهـروب مـن احتـمالات صفعتـي، وإن شـئتُ فعـلا قتـلي فقـد وجـب أن أفكّـر، وأن أحـرق مسـاحات احتـمالات زوايـا الهـروب والنجـاة بكـبر مسـاحة مـا أقـذفُ بـه نفـسي، وليكـن ذلـك جريـدة..

وقلتُ بصوت عالٍ كي يتسنّى لها سماعي:

- يمّا ما عندناش جورنال...

لا أعـرف إن كانـت سـمعتني أم لا؟.. تبخّـر الصمـت في الهـواء كـما تتبخّـر أشـياء كثـيرة في حيـاتي، لا يهـمّ.. فـردة خُفّهـا اليـسرى في يـدي وأنـا أتقـدم نحـوي ببـطء وحـذر، إذ كنـتُ لا أزال أدعـكُ رجـليّ وأكشـطُ رأسي وأنـا عـلى الجـدار، كنـتُ أسـتطيع أن أحـدّد

وبدقّة أي مثير خلفي.. نأمة، حركة، ظلّ، صوت، بقدرة عينيّ الكبيرتين الواسعتين تصلني كل هذه المعلومات التي أبني عليها قرار الفرار والطيران والنجاة..

أمشي ببطء نحوي، يدي مرفوعة في الهواء، شاهرة فردة الخُفّ، بقلّة معلوماتي أدركتُ أنّ سقوط ضوء الغرفة على ظهري سيفشي ظلّي، ما يعطيني وأنا متشبّث بالجدار قدرتي على الإحساس بي وأنا قادم لقتلي، لذلك ففي اللحظة التي أعدتُ فيها يدي إلى الوراء كي أجهز على جسدي الضئيل، رحتُ أضغط برجليّ الستة على الجدار، وأفكّ جناحيّ بما يوفّر لي قدرة على الطيران السريع تفادياً للضربة..

- باااااااااااااااااااااااااااااف.

سمعتُ الضربة وهي تشتعل بصوت قاتل من جرّاء ارتطام مشط الخُفّ بالجدار، كانت قوية، حادّة، حاقدة.. كأنّي كنتُ أودّ قتلي بهذه السادية الرعناء التي نبتت من حقدي عليّ طوال هذه السنوات، لذلك فقد ناورتُ إلى الشمال بطيرانٍ جانبي، ثم عدّلتُ وضعية جسمي ما سمح لي بملاحظة أرض الغرفة وفهم الضربة ومعرفة صورتها وسرعتها البطيئة جداً.. جداً.. رحتُ أدفع بجسمي إلى السقف تفادياً لأيّ محاولة أخرى منّي لملاحقتي، انقلبتُ على ظهري في الهواء لأثبّتَ أرجلي، ومن ثمّ جعلتُ أدعكُ جناحيّ ببعضهما، كأنني أنظفهما وأغيظ نفسي، وأنا أرقبني من أرض الغرفة بسرعتي وقدرتي على هذه المناورات السريعة الخاطفة، والطيران المفاجئ في أيّ اتجاه كان...

عدتُ إلى فنجان القهوة، مسحتُ بأناملي حافته من أثري، خفتُ من ذلك الفاصل الزمني الضئيل الذي أتاح لغفلتي أن

أحطّ على حافته لأرتشف قليلاً من السكّر، ربّما كنتُ سريعاً بالقدر الذي وفّر لي مدّ خرطومي كي أحوّل بإنزيمه غذائي إلى سائل أشفطه بسرعة، وربّما كانت يدي وهي تهشني أسرع من تلك المحاولة التي انتهت بفشلي، ثم بطيراني..
لا أعرف...

لكن، ومن باب الحيطة والخوف على نفسي، رحتُ أنظّفُ حافّة الفنجان من أثري وأنا أرقبني في السقف، وأفكّر في ما يجب فعله لكي أنتهي منّي، لذلك فقد ارتشفتُ قهوتي بقلق بالغ، وعدتُ أحمل فردة الخُفّ في يدي، وأصرخ بكمال صوتي:

- يمّا كرهت منّي..

هي دائما لا تكترث، ثقل سمعها من وطأة السنوات، تفشّى الوهن في عظمها، بدت لي في أكثر من مرة وهي تحجل في مشيتها، وكنتُ أبكي في سرّي لما ألمّ بها، وكانت ربّما تفعل الشيء ذاته في خلوتها لأجلي، ولأسباب مجهولة قلّ الحديث بيننا، فلم يبق لنا غير أسرار الإحساس المبني على الحبّ والخوف، خوفي عليها وخوفها عليّ.

لعلها ما سمعتني، لأقُلْ إنّ صوتي لم يكن بمثل الدويّ الذي تصورته، ربّما كان همساً، مجرّد نجوى أسرّ بها القلب إلى القلب وأنا أتعقّبني لقتلي، لقتل قذارتي، لقتل مأساتي ودفن أوساخي معي.

ما الذي أفعله في فضاء هذا السقف؟.. ولماذا أهرب كل مرة من موتي؟.. لماذا أكابر وأنا أناور بهذا الاعتداد الكاذب؟.. كرّ وفرّ، إقبال وإدبار، ارتفاع وانخفاض، انسياب وتقلّب في الهواء...

نبضات قلبي فائقة السرعة، عيناي الكبيرتان تأخذان كل مساحة رأسي، شعري الكثيف الحادّ، جناحاي بسرعتهما الخارقة، أرجلي الستة وأنا أضمهما وأطلقهما كلولب على كل جسم يصادفني، النّشوة في الطيران، في الجنون، في الهرب، في البقاء، في الموت، لكنني لا أموت....

كانت يداً قد أمسكت بيدي:

- أجُنِنْتَ سيتّسخ السقف؟...

قلتُ:

- يجب أن أموت...

خلّصتُ يدي من يدها، ولوّحتُ بالخُفّ في الهواء كأنني أثبت لها جدّيتي في قتلي، فهي تعرف أنّي لم أعد أصلحُ لأيّ شيء.. لقد دمّرت سنوات السجن إنسانيتي، وسرقت منّي كل معنى.. كانت القاذورات والأوساخ التي تمرّغتُ فيها زمناً كفيلة بأن تحوّلني إلى ما أنا عليه، وكانت أمّي مؤمنة بي إلى أبعد الحدود، بعد أن يئست من محاولات إصلاحي..

- لا تخرج...

وكنتُ أركبُ رأسي وأعصي كل أمر، أرتمي في هذه الشوارع العفنة، أجري فوق أكداس الأكياس البلاستيكية، القيء، الجرذان، الأكل المتعفّن، والمزبلة تكبر.. أعوان النظافة في غيابهم الطويل، في كل زقاق تنبتُ قمامة، وعلى كل باب بقايا أوساخ، الناس لا يرحمون الشوارع في غياب من يطهّر هذه المساحات، يلقون بكل فضلاتهم فيها... جناحاي ينبتان في البداية، رجلاي تتحوّلان من هذا الجري المتصلّ، ومن جانبيّ بطني تطلّ رجلان أخريان، يداي تتحوّلان بالكيفية ذاتها، تتسع عيناي..

كرتان عامرتان بالوهج، وأطير، أحلّق بدل أن أجري، تشتعل السعادة في كل عصب من روحي، أنتشي بالروائح الكريهة العطنة، وأعود لأزحف على بقع المياه الآسنة، ثم أطير بسرعة فائقة، أتعلّق بأيّ شيء أو أحوم كطوّافة تناور في هواء فارغ، وأطلق هذا الطنين الذي يزعجني، أتقلّبُ، أتدحرج، أقبل، أدبر بجنون طوفاني، وأقول في سرّي لا يمكن لسرعة يدي أن تلتقطني أو تصرعني..

مع الوقت كَرِهْتُنِي، كرهتُ هذا العطب فيّ، وأنا أتربّص بنفسي، والقمامة تفرّخُ، تتكاثرُ فتسدّ كل منفذ وتغرق البيوت بعفونتها، والذباب يفرّخ وينمو ويتسلّل إلى البيوت من خصاص النوافذ والأبواب والصدوع والمنافذ.

* * *

دخلتُ بيتنا ليلاً هرباً من البرد، فدخلتُ المدينة وطرتُ باتجاه ستارة النافذة، مشيتُ بحذر على الجسر، بعينيّ الكبيرتين مسحتُ الغرفة، تسلّقتُ السقف، ومن ثمّ تسلّقتُ سياج الجسر الحديدي، وقفتُ على الحافّة، سمعتُ صوت أمّي يمسك بيدي:

- أجُنِنْتَ سيتّسخ السقف؟...

قلتُ بتصميم:

- يجبُ أن أموت...

كنتُ على السقف، هدّني اليأس من كثرة طيراني، بدا لي أنّ قدرتي على الرؤية والسرعة قد تراجعتا إلى الحدّ الذي أعاقني عن أيّ رد فعل، بدا لي أيضا أنّ يدي قد تحرّرت من ثقل يد

والـدتي، وقفـتُ عـلى حافّـة الجـسر بسرعـة تمنـع أيّـاً كان مـن ردعـي عـمّا اعتزمـتُ عليـه، وفيـما أشـهرتُ الخُـفّ في الهـواء، كنـتُ أهـوي بـكل طاقتـي...

- باااااااااف..

(1) البشماق الخفّ من النيلون في اللهجة الجزائرية

الساعة

... وغمرني هذا الهمّ الذي يغمر الخسران، فبكى قلبي في أعماقي كأوجع ما يكون البكاء، ولعجيب الحياة وتصاريفها فإنّي لم أرَ لي دموعاً، لكنّي تأملتُ بروح باردة أشرفت على الهلاك قرص الشمس مظلّلاً بسحابٍ فضّيٍّ وهو يطلع من المغرب، ونظرتُ حولي كالسكران فوجدتُ الأعناق مشرئبّة والأعين شاخصة والشفاه متمتمة والأصابع ممدودة.

كانت الشمس تصعد رويداً رويداً، وأصداء أصوات كالتراتيل تملأ الكون كلّه، اشتعلت الدنيا بصهد الحرّ الذي يورِّثُ العجز.. كأنّها آية الله الأخيرة وأول الكشف في قيامة الهول العظيم، واستيقظ خوفي القديم بتلاطم أجساد واندفاعها نحو الخلاص من نار الجحيم، وأشرق العطش الأبدي في كل أعصابي، حتى علا صراخ وعويل صبية أسفل نافذة غرفتي..

وقال صوت ينتزعني من غبش نومي:

- هذه ساعة التحاق الأطفال بمدارسهم..

باسم الله

صافحني والمسدّس في يسراه، سألته إن كان قتلي يُرْضِي السماء، فقال:

- عليّ أن أسمع وأطيع..

دعوته إلى شرب فنجان قهوة قبل أن يسحب الزناد، فاستجاب لطلبي، جلسنا يفكّر كل منّا في مآله حتى سمعته يقول:

- الله يعلم..

نظرتُ حولي بعينين ملأهما اليأس، فرأيتُ خلوّ المكان من الزبائن والنادل، ثم أطرق رأسه كمن يتأمل القادم من الغيب، عاد إليّ صوته بعد برهة ببسمة سخرية:

- لا أحد يريد أن يشهد قتلك.

- الله يشهد ذلك.

سمعتُ صدى الطلقة وهو يصفّر في رأسي، ثم داهمني ضوءٌ مشعٌّ كشف كل شيء، فتهاوى جسدي بلا قدرة دافعاً الكرسيّ إلى الوراء، نهض هو يتحسّس رقبتي بيده إلى أن اطمأن إلى نومي، تركني ألهو بدمي بوداعة طفل، وخرج يهيم على وجهه حاملاً مسدّسه مطلقاً لحيته إلى أن هَرِمَ، فعاد أدراجه إلى المقهى ذاته حيث لقيني أغطّ في نوم عميق، سألني إن كانت بي حاجة يقضيها فأومأتُ بالنفي، تساءل حينها بدهشة:

- أبقيتَ وحدك طوال هذه المدة؟

قلتُ بيقين:

- نحن مع الله..
- فيمَ قتلتكَ؟
- سمعاً وطاعةً.

جاء النادل وتبعه صاحب المقهى ودخل الزبائن الواحد تلو الآخر، تشاغل هو بفكّ ماسورة مسدّسه، فهززتُ يده وأنا أهمس:

- قلْ له فيمَ قتلتني؟..
- لقد قتلتكَ باسمه، أمّا وقد عدتُ إليه فقد وجب أن أسلّم سلاحي.

النّمل

تعقَّبَت المرأة خطّ النمل المعوّج، وهي تحني جذعها بالقدر الذي توفّق فيه إلى رؤية واضحة تكشف لها عن أصل المكان الذي يجيء منه، لكن الخطّ ظلّ يمتد ويتعرّج إلى أن اختفى تماما خلف سياج الحديقة، وقفت أخيراً وعاودت تأمل حركة الخطّ الأسود المتحرّك الذي يختفي بطرفه الثاني وراء جدار المطبخ، ثم قدَّرَت بينها وبين نفسها أنّ هناك ما يحصل بعيداً عن متناول فهمها.. سرقة أو قتل أو نهب، ارتقت السلّم الحجري المؤدّي إلى المطبخ ملقيّة نظرة عجلى على سطح " البوتاجي "
لا أثر..

ولكي تطمئن أكثر، فقد استنجدت بكرسيٍّ قديم مكّن قصر قامتها من بلوغ الخزانة حيث أوعية السكّر والملح والفلفل والأرز، مسحت براحة يدها على كل مكان لم يطله بصرها، استاءت كثيراً حين لم تجد أثراً لنملة واحدة، ثم خمَّنَت.. لربما حفر النمل له جحراً في أسّ جدار مطبخها حيث تستعصي رؤيته، لذلك فقد خرجت إلى الحديقة من جديد لتعثر على ما يمكن فهمه.

كان النمل لا يزال يهتزّ كخيط أسود في جيئته وذهابه، فانحنت من جديد لترى ما الذي يحمله بين فكّيه، إلا أنّ ضعف بصرها لم يسعفها في المعرفة، وبحكم محاذاة حديقتها للطريق العام، فقد ظنّ كل من رآها وهي على تلك الحال أنها قد ضيَّعَت شيئاً

عزيـزاً، مـع ذلـك فلـم يجـرؤ أحدهـم عـلى سـؤالها إلى أن اقتربـتُ منهـا بخطـى مـتردّدة وحلـق جـافّ، وأنـا ألهـث:

- هو يخرجُ من جسدي..

لم تلتفـت إليّ، راحـت تهـزّ خيـط النمـل بقضيـب في يدهـا حتـى تشـوّه طريقـه، لكـن النمـل كان يعـود سريعـاً إلى نظـام سـيره الأول.. ضحكتُ وأنا أقول:

- فيه حكمة التنظيم.

- ولكنّي لا أفهم ما الذي يحصل؟..

خلعتُ قميصي كاشفاً عن ظهري:

- ها هي آثار عضّاته.

وفي لمـح البـصر راح النمـل يغـيّر طريقـه نحـوي، انسـحب مـن وراء الجـدار وتسـلّق حذائـي وبنطـالي بخفّـة وهمّـة عاليـة، وقالـت المـرأة:

- هـذه آثـار تعذيـب بشريـة، ضرب وخـدش.. كـم لبثْـتَ في السـجن؟..

قلتُ بانكسار:

- لا أعـرف التهمـة، لكـن النمـل عـلى درجـة عاليـة مـن النظـام والدقّة..

وشـدّني الحنـين إلى الراحـة، فجلسـتُ أتعقَّـبُ خـط النمـل المعـوّج، وهـو يتحـرّك بتنظيمـه الدقيـق فـوق جسـدي.

في البحث عنّي

أصابني القلق الذي يصيب من ينتظر مراده على باب الأمل فتأفّفْتُ بحرقة. نظرتْ نحوي كأنها تكتشفُ وجودي لأول مرة، فقلتُ :

- جئتُ لأبلّغ عن ضياع.

ردت دون اهتمام للأمر:

- انتظر حتى يفرغ الضّابط، فيأذن لك بالدخول.

لم تسألني عمّا ضاع منّي ولا كلّفت نفسها عناء الحسرة لأجلي، فاستغربتُ موقفها ذاك، ولكي أتناسى طول انتظاري، رحتُ أرقبها بعين الفضول. بدتْ في ريعان الشباب، مثمرة، بيضاء، يهوي شعرها بسواده من مؤخرة فتحة القبّعة الزرقاء حتى أسفل ظهرها، وتكشف تنّورتها عن كنوز فاتنة، ووقعتْ نظرتي على مسدّسها وقد تدلّى من حزام تمنطقت به، فدعاني الخيال إلى تأملها عارية إلا من أداة قتلها تلك، ثم غمرني إحساس بأنّ ما ضيّعته لا يفصلني عنه غير قوة وعيّ تعيدني إليها، فعدتُ أسأل وأنا بين سكرة ويقظة:

- هل سيطول انتظاري؟

- الأمر يتوقّف على ما ضاع منك.

غمغمتُ بيأس، ولكني تردَّدتُ في كشف حقيقتي، فقد أوحت لي بأنّ الحلّ والرّبط بيد الضّابط، عدتُ إلى ملاحقة

ملاحـة عريهـا، وفتنـة بياضهـا، وتأمـل مسدّسـها حتـى قالـت:

- كيف تضيّعون أوراقكم الثبوتية بهذه السهولة؟..
- الأمر لا يتعلّق بضياع أوراق.
- فعن أيّ شيء ستبلّغ إذن؟..
- عنّي..

فغـرت فاهـا كأنّهـا وقعـت تحـت هـول صدمـة، ولكنـي اندفعـتُ نحوهـا شـارحاً موضحـاً حتـى تعـود إلى سـكينتها:

- كل أوراقي الثبوتية هنا..

سـحبتُ الرزمـة مـن جيبـي ووضعتهـا عـلى مكتبهـا وهـي تتابعني بحـيرة، ومـن دون أن أعطيهـا فرصـة سـؤال آخر رحـتُ أقول:

- إنّي لا أجـدني إلا في أحلامـي، وحـين أصحـو أراني وقـد ضعـت مـن جديـد، لأجـل هـذا فأنـا بـلا بيـت ولا عمـل ولا زوجـة.

رتّبـتْ أوراقـي وابتسـمتْ بسـخرية مـن يهـوّن الأمـر، ما شـجّعني عـلى دعـوة خيـالي مـن جديـد لأراهـا عاريـة بيضـاء تلـوّح بمسدّسـها في الهـواء، ثـم تقـتربُ منّـي شـيئاً فشـيئاً وتهمـس بحنان:

- ما دامت أوراقك معك فلا خوف.

لا أعـرف إلى حـدّ اللحظـة مـا الـذي ضيّعـت، فحتـى وأنـا بهـذه الأوراق سـأبقى مجـرّد اسـم لا معنـى لـه.

الدخول والخروج

لا أعرف اسم الثعبان، أما لونه فقد كان يميل إلى اخضرار يشبه لون النباتات الأمر الذي يمكّنه من التمويه. مدّ رأسه زحفاً من فوق سطح خزّان الكهرباء، فبدا جذعه بحجم رقبة زرافة، هالني المنظر وألجمتني الدهشة وتسمّرتُ مكاني أتفرّج عليه وهو يلتقط بوحشية فكّيه طريدة لم أتبيّن ما هيتها، ثم أحسستُ بحرقة تشتعل في كتفي الأيمن، مددتُ يدي أستطلع الأمر، فعلقت أصابعي بقيء أخضر، طار قلبي بين الهلع والغثيان.. هرولتُ كالظمآن في صحراء الموت بحثاً عن شربة ماء إلى أن صادفني في تلك الطريق الخالية القفر هيكل سيارة قديم، بدت كخردة أول الأمر، إلا أنّ ضحكات أنثوية انظلقت منها زرعت فيها الحياة وردّت إلى قلبي بعض الأمل:

- ألا أجد عندكما ماء؟..

مدّت العجوز يدها بحبّة تفاح من وراء النافذة الخلفية، فشكرتُ لها صنيعها، وقد تبيّن لي ولها أنّ بيننا سابق معرفة، سألتها عن الفتاة التي تجلس في مقدمة السيارة، وعن معنى وجودهما في هذا المكان تحديداً، فلم ألق منها غير ضحكة عالية مجلجلة..

اغتسلتُ من أثر قيء الثعبان، وسرتُ بلا هدف واضح حتى انتهيتُ إلى صديق قديم، قرأ على وجهي شحوب الموت

وخوفاً من خطبٍ سألني عنه بقوله:

- هل أنت مريض؟

فتحتُ فمي كي أجيب، فوجدتُ حلقي جافّاً، داهمتني رغبة في البصاق، لكنّي عجزتُ عن فعلها، وانتظرتُ لعلّ في الانتظار استعادة لقوة الأمل بعد طول يأس، ولكن الدنيا غامت والحياة تكدّرت بتداخل أصوات خرير مياه أودية بدمدمة طلقات بنادق، وهزيم رعد بعويل نسوة، فسُحِرْتُ إلى الغاية القصوى، وبدا عجزي في أكمل وجوهه، وصديقي يقول:

- هي مثل لسعة الدبّور، الأمر لا يحتاج إلى كل هذا العناء.. لسعة خفيفة منك، وسنموت بالفرح.

دماء الطين

اقتحمت المرأة الباص وعلى وجهها بعض الرضوض والخوف، تعلّقت بأقرب عمود حديدي طالته يدها، سألها أحدهم عن خيط الدم النازف من الجهة اليسرى لشفتها، فمسحته بكمّ كنزتها الصوفية، وسألت:

- هل بقي أثره؟

كانت تمطر في الخارج، وتطوّع آخر بتنبيهها إلى الوحل العالق بكعب حذائها، فانحنت لتنظّفه، استغلّ الرجال وضعيتها تلك بتآمر أعينهم على الفرجة، فلم ينعموا طويلا بمتعة التلصّص حتى جاءهم صوتها:

- هل رآه أحدكم؟

لم ير أيّ منهم ما الذي حدث، فقد كانت الطريق غارقة في الضباب والمطر، وكان إيقاع سير الباص على عادته، والمرأة صعدت من دون أن يتوقّف أو يبطئ سيره حتى، اندفعتْ بقوة سحر غيبية من الباب المغلق، فكادت أن تقع على أرضية الفولاذ البيضاء الصقيلة، لكن سرعة بديهة يدها أنقذتها حين تعلّقت بأقرب عمود حديدي، هزّ الرجال رؤوسهم يمنة ويسرة علامة نفي واحدة، لم يروا شيئاً ذا بال، وجعلوا يتهامسون فيما بينهم وهي تقلّب البصر بينهم بحيرة وقلق، ثم سألتهم: أين كانوا، وهي تتلقّى ما تلقّته من التّعنيف والضرب والسباب؟

وسألوا بصوت واحد كأنما اتفقوا بهمسم على السؤال:

- لماذا تصنع بهم ما تصنع؟..

فمعظمهم بلا زواج، وهم لا يبرحون هذا الباص إلا لقضاء حاجاتهم، ثم يعودون صاغرين، وحين يسألهم قاطع التذاكر عن الوجهة أو المحطّة التي يقصدونها لا يلقى منهم سوى الحسرة والتأفّف، ثم يغرقون في البكاء..

الحق أنّ المرأة لم تفهم ما يدور حولها، فأعينهم غارقة في الدمع والحزن، وإجابتهم كانت بسؤال المتوسِّل الذي يبحث عن الخلاص مما هو فيه، وهي لا تعرف مصابهم، ولم تتنبّه حتى إلى اختلاسهم النظر إلى مؤخرتها وهي تنحني لتنظّف كعبها من الوحل العالق به، ثم تعاود دعك ما علق بأصابعها من طين على خدوش وجهها، وتسأل:

- هل بقيت آثار الدماء؟

كان الباص قد توقّف قبل أن تتنبّه لهم، فغادروه في صمت، وقال قاطع التذاكر:

- لقد ذهبوا لقضاء حاجتهم، وسوف ينزف هذا الطين كثيرا في سبيل ذلك.

الجرذ

بحثتُ عن البيت طويلا، صعدتُ تلّة ونزلتها، مشيتُ في هذه الطرق المتشعبة دون جدوى، ومن يأسي فتّشتُ في الموبايل عن رقمها بيد مرتعشة - لربّما أرشدني إليها-، إلا أنّ ضعف بصري وسرعتهم خلفي حالتا دون نجاحي.

كيف اختفت واختفى معها البيت بهذه العبثية؟.. فآخر وأول مرة كنتُ قد زرتها فيها، قالت لي:

- لولا العيب لتأبَّطتُ ذراعك..

ابتسمتُ من قلبي وسلَّلتُ يدي كلصّ إلى يدها، سرنا كطفلين يتعرّفان إلى الطريق لأول مرة، ثم نسيتُ كل شيء في غمرة الحبّ، ربما كنتُ أبحث في المكان الخطأ، فهذا الحيّ حيّي وملعب طفولتي، وذاك بيت جارنا، والطرق حتى وإن بدت كشعيرات دموية في جسم كائن فأنا أعرفها وأحفظها عن ظهر قلب، فأين بيتها؟

مشيتُ في درب متعرّج اخترته تحت ضغط الخوف، واجهتني أكداس القمامة وقطط شاردة، وبلغني صوت فالتفتُّ إليه، كان صاحبه يستند إلى جدار آيل للسقوط، ويفرك قطعة حشيش بين أصابعه، ثم يمزجها بالتبغ ويلفّها ويحكم طرفيها بلعاب لسانه، سألته إن كان يمكن له أن يدلني على بيتها، فقال:

- هاك.. عمّر راسك..

بـدت كسـيجارة فـلا أحـد يسـتطيع أن يشـكّك في كونهـا غـير ذلـك، وضعتهـا في جيـب سـترتي، وانطلقـتُ بأقـصى مـا وسـعتني خطـواتي لأعـود إلى " بـاب الـزوار " ولكـن الحـيّ اختلـط عـليّ، فتداخلـت معالمـه بأبنيـة حـيّ طفولتـي، كان الأمـر واقعيـاً، والبنـت تسـحبني مـن يـدي باتجـاه الردهـة، ثـم تحكـم إغـلاق البـاب لتـدل عطـشي عـلى ينابيـع جسـدها.

أمـا الآن فـلا أجـد البيـت، لذلـك فقـد جريـتُ بالسـيجارة كقنبلـة موقوتـة سـتنفجر في أيّ لحظـة في جيبـي، أحسسـتُ أنّ الأمـر مكيـدة دُبِّـرَت لي، وأنّـه مـن الواجـب أن أنجـو ممّـا تورّطـت فيـه، مـلأني الرعـب الأعمـى وأنـا أجتـاز مـا تـراءى لي أنـه زقـاق، ثـم صعـدتُ التلّـة التـي كنـتُ قـد مـررتُ بهـا في أول طريقـي، لأجدهـم في وجهـي يشرعـون الفـؤوس والسـيوف والمكانـس، ويصرخـون بمـلء الرّعـد:

- ها هو الجرذ...

نجـوت بهـروبي إلى القمامـة، وعشـتُ طويـلا حتـى اسـتيقظت مـن النـوم..

القطار

تكدّسنا في المحطّة يحمل كلٌ منا تذكرته وينتظر دوره، وزحف الظلام فلم نعد نرى إلا أصواتنا وهي تخترق العتم مشكّلة وجودنا.. قال رجلٌ:

- من الخير أن نغادر..

اشتعلت الأصوات من كل الجهات تؤنّبه على اقتراحه، وتمسّكنا بالأمل والرجاء في ما جئنا لأجله، وقال بعضنا:

- الليل في مستهله، وعلينا أن نحارب اليأس بالإيمان.

طوال حياتي وأنا أكفر بكل شيء، فمن أين سوف يأتي الإيمان؟.. وتمنيتُ برغبة توّاقة لو انصاعوا إلى اقتراح ذلك الرجل، فمضينا كلٌ إلى سبيله وكفينا أنفسنا شرّ انتظار بلا معنى، وما لبث أن سمع أحدهم صوت ضميري، فضحك حتى لفت انتباه الجمع إليه:

- ماذا هناك؟..

غالب ضحكته بكلمات متقطّعة:

- أحدنا هنا يريد أن يغادر..

- إلى أين؟

- لا أعرف، ولكن الملل تسلّل إلى نفسه.

وقال صوت من عمق الظلام:

- فليصبر حتى تُقْضَى حاجتنا.

لم نعرف كم لبثنا من وقت، لكنّي رأيتُ فيما يرى النائم أنهم يتحوّلون إلى أطفال، ثم يُخْرِجُ كلٌ منهم لعبته من الهواء، ويُصْدِرُ صوتها بفمه، قطارات، دمى، مسدّسات، بالونات، اختلطت أصوات أفواههم بريح عاتية، فأيقنتُ أن لا سبيل إلى التفاهم معهم، وأنّ انتظاري لا خيار لي فيه، فلا مكان لنا غير المحطّة، وفي جلبة لعبهم اقترب مني صفير قطار من شفاه أحدهم، ثم همس لي بصوت طفولي:

- اركبْ..

أدخلتُ جسدي الفارع من نافذة القطار الصغيرة، فساد الصمت، واشرأبّت الأعناق، وفترت الأيدي عن الألعاب، فطارت البالونات الملونة إلى السماء فيما القطار يختفي بي في جوف الليل.

كأنه الحبّ

تورّطتُ في قتله وهو عائد إلى بيته، كان ضوء القمر يغسل المكان فيكشف حلاوته بفتنة فضيّة ساحرة، واستسلم الخلاء إلى صمت شفيف لا يكدّره غير غنائي المتقطّع الذي استعنتُ به على طرد هواجسي وتعزيز رغبتي في قتله، لم يدم الوقت طويلا حتى تراءى لي يجرّ خطواته على الطريق الترابية، بدا في مشيته كالسكران، فكانت تلك فرصتي المواتية.

تسلّلتُ بهدوء إلى المكان الذي يتيح لي تنفيذ مهمّتي دون ضجّة، مستحضراً في ذهني موقف الجريمة الكاملة وبالسرعة التي تتطلّبها، ثم رأيتني أتعقّبه بشيء من الحذر وأشهر السكّين، لأهوي به بقوة حقد أعمى فأغرسه في ظهره، ثم أسحبه لأعاود غرسه من جديد، فضربة ثالثة، ليتهاوى بعدها على الأرض كشجرة تحت ضربات فأس.

لكن قتلاً كهذا لا يليق بي، فهو في كل وجوهه لا يعدو ان يكون غدراً وخسّة ونذالة، ان تأتي عدوّك من الخلف، ثم تطعنه من دون أن تنظر في عينيه، فتلك وضاعة لا يحتملها القلب الحيّ، فالموت بحاجة إلى النُبل تماماً كالحياة، بل انّ معنى الحياة لا يكتمل إلا بموت يريح القاتل والمقتول معاً ويجعلهما يتواجهان وكلٌ منهما يحمل للآخر اعتراف بنبل الفعل وشهامة الموقف، لأجل هذا فقد عدلتُ عن فكرتي تلك، وتجاوزتها إلى الطريق، فقطعتها مستفزاً كل عصب فيه، ولسبب لا أعرفه.. تخيّلته ظلّ هادئاً، يرنو إليّ بنظرة حائرة، ثم يبتسم بحنو وكأنه يقول لي:

- لماذا تكشف جريمتك تحت ضوء القمر؟

دفعته، فترنّح من دوار السكر، ثم هوى على التراب، سحبني فوقعتُ فوقه، وقبل أن أستعيد وعيي بما يحصل، عاجلني بلكمة على وجهي فأفقدني تركيزي، شممتُ رائحة التراب تتسرّب إلى حلقي، فصرختُ بكل ثورتي ومددتُ يدي بسرعة طائشة إلى "الكولونداري" (1) الذي علق بحزام بنطالي، ثم سقط بعيداً عن متناول يدي، بحثتُ وأنا في وضعيتي تلك عن حجرٍ أشدخُ به رأسه، لكن سرعته سبقتني بركلة طيّرتني في الهواء، فوقعت على حافّة الطريق، وقبل أن أستسلم للألم الذي اشتعل في ظهري، وجدته قد طار هو أيضا معي ووقع تحتي، وهرولتُ باحثاً عن السكّين في التراب، فلحقني، وهو يلهثُ ويقول:

- لن تستطيع قتلي ما لم تقتل نفسكَ..

كان السكّين في يده، بعد أن التقطتُه من الأرض، بدا أننا نحمل سكيناً واحداً، وقبل أن يباغتني، رحتُ أطعنُ بطني، فيهوي هو بكل ثقله على التراب..

تورّط في قتلي وأنا عائدٌ إلى بيتي. كان ضوء القمر يغسل المكان، وهو يحتضنني بشيء من الحبّ.

---

(1) نوع من السكاكين

صورة وكتابة

طارت القطعة النقدية في الهواء ودارت حول نفسها. لم نختر فيها وجه الربح من الخسارة، قلتُ له وقد كوى البرد القارس عظمي :

- لنشعل ناراً ونتدفّأ، ثم نختر بعدها أيّ وجه يصلح للربح.

أغمض عينيه المحمرّتين، ومن دون أن يأبه لي راح يملأ فمه بالهواء وينفخ بأقصى طاقته، مدّ اللهب لسانه إلى عود حطب فأوقده، بعين دامعة وسعال متقطّع قال:

- ليتك جمعتَ الجافّ من العيدان.

- إنها تمطر منذ ليلة أمس، وقد بلّلت كل شيء.

حين عانَدَتْهُ بقية الأعواد في الاشتعال، برك كالبعير، حنى رأسه في نفس اتجاه هبوب الريح حتى لا يتمكّن الدخان من عينيه، وراح ينفخ بلا توقّف.. سمعتُ طقطقة، وانزاح الدخان عن ألسنة لهب لذيذة راحت تتعالى فتخفي شكل الحطب ولونه، توقّف برهة وهو لا يزال على انحناءته، حدجني بنظرة من نسي أمراً مهمّاً:

- تعبتَ؟.

- لا، ولكنك لم تقرّر بعد.. الصورة أم الكتابة؟

نسينا القطعة النقدية وهي تتقلّبُ في الهواء، انشغلنا بإضرام الوقت، اقتربتُ حتى يلفح الدفء كفيّ وأنا أشيح بوجهي عن

آخـر خيـوط الدخـان، بصـق عـلى الأرض، وهرسـتُ الجمـر العالـق بـرأس العـود المتوهّـج، دفعتـه إلى عمـق اللهـب حتـى تتمكّـن النـار منـه.

انفجـرت الطقطقـة مشـعّة بألسـنة رقيقـة سريعـة، فانسـحب بجذعـه إلى الـوراء وهـو يلعـن:

- حاذر أن تحرق وجهي.

سـقط الجمـر بلـون ذهبـيّ، عـمّ الـدفء، فحمـل جسـده إلى الوضـع الـذي يمكّنـه مـن الجلـوس، قـال وهـو يعـصر بسـبّابة وإبهام يـسراه أرنبـة أنفـه:

- ها... صورة أم كتابة؟..

كنتُ لا أزال باسطاً كفّيّ أتدفَّأُ، وكان يمسح يده في بنطاله..

* * *

حين قلّبتُ الصورة تفاجأتُ بسقوط التاريخ الذي جمعنا.

الكلبة

ظلّت الكلبة تراوح في المكان عينه، تتحرّك بهذا البطء الذي لا يعهده الرائي من حيوان مزوّد بكل طاقة الجري والسرعة والقفز والتسلّل والحذر، كانت تمشي فقط، بانكسار يكاد يشرف بها على التيه، بضع خطوات ثم تستدير لتعود أدراجها إلى المكان الذي انطلقت منه، وأحيانا تخرج عن خط سيرها، فتسلك جهة السياج، لكنها تبقى في الدائرة ذاتها، وحين تعتدل في وقفتها الفارغة من أيّ معنى، تعكس عيناها بعض قوة الصبر على ألم فاسد ينهكها من الداخل، عينان تقطران بسواد ذائب في كسل بنّي خافت، فتشكّلان صوت الهدوء والاستسلام، ولم تكن الكلبة لتستسلم، فقد رفعت ساقها الخلفية اليمنى بعد أن ثبّتت جسدها على الأرض، وراحت تهرش رقبتها ثانيةً رأسها باتجاه جذعها، ما جعل أثداءها ممدودة الحلمات ترتّج بنفس إيقاع هرشها، لتنهي حركتها إلى هذا التحدّب الذي ترفع فيه مؤخرتها إلى أعلى، ثم تدفع بكل ثقل جسدها إلى الأمام معتمدة في كل ذلك على ساقيها الأولين.. فجأة تعود إلى وقفتها الأولى، بالنظرة العميقة نفسها الغارقة في الألم، وبالشعر المشعّث الضارب في صفرة ألوان الخريف، وقد راح يتساقط عن بعض أنحاء جسمها كاشفاً عن جلدها، مشكّلاً هذه البثور التي زادت من قبحها، أما الرجل الذي يبلغه خبر معاناتها من ابنه، فيجهر له بأنه فكّر فعلا في قتلها منذ أن...

ولكن الفتى يقاطعه بشيء من التوسّل والرهبة قائلا:

- حرام نقتلوها يا بابا...

ويقوده إليها عند المساء، يقسم له بأغلظ الإيمان أنها بدأت تتماثل للشفاء، وأنّ الأمر مسألة وقت لا أكثر حتى تعود إلى سابق صحّتها، يقطعان الطريق التربة، يتخطّيان بعض الأشواك المتناثرة حتى يبلغا طرف الحقل، يلحظ حماسه الفيّاض ورغبته الجامحة في الإبقاء على الكلبة، فيسأله:

- هب أنها ماتت؟

يصمت الفتى على مضض، هو لا يعرف معنى الموت، لم يجرّبه قبل اليوم، ولا رآه رؤية العين، مجرّد قول ينتشر في سماء سمعه، يحسّ بشاعته وكرهه ومقته، يحسّ كره الناس له أيضا، لكنه يجهله كل الجهل، ويخافه كل الخوف، لذلك فهو يحرص بتوسلاته على عدم تعرّض الموت له في روح كلبة:

- ستشفى.. المصيبة أنّ لون القراد كلون شعرها، لا أكاد أراه.

انحنى إلى القدر الذي يمكّنه من ملاحظته، طوّق الكلبة بذراعه، وراح يحفر بأصابعه في شعر رقبتها، وهو يقول:

- عليك أن تجعل القرادة ترخي قبضتها، لا تسحقها وهي متمسّكة بالكلبة، فلربّما بقيت ملاقط فمها وأذرعها متعلقة بالجلد، سأزعجها بالقطران، ومن ثمّ أسحبها بضغط ثابت، وببطء شديد نحو الخارج.

تأمل ولده بحنو، دار في المكان كأنه يبحث عن طريق عودته، ضيّع الصبر الذي رافقه به إلى هنا، ولحدّ الساعة لا يعرف إن كان سيقتلها أم لا، يفكّر كثيرا، وقصارى فهم الولد قرادن على جلد كلبة، كيف سَيُفْهِمُهُ أنّ لا علاقة للقردان بالأمر؟.. وأنّ

الكلبة ستظل كلبة، وأنه حاول قبله كثيراً في تخليصها من هذا الإثم فلم يفلح.. كانت تهزّ ذيلها بتودّد، وتحوّل نباحها إلى مواء خافت يشبه مواء القطط، وتخفض عينيها باستسلام ووجل وطاعة، ثم لا تلبث أن تنسى، لتمضي في طريق الإثم، تقفز فوق سياج الليل، وتمضي، تتمرّغ في التراب، وتحتكّ بكل قذارة..

- لا ذنب للقردان.. قال للولد.

أرخى الولد يده عن رقبة الكلبة، فانفلتت منه وتحرّكت بثقل مشيتها نحو السيّاج، راح ينظر كل منهما في عينيّ الآخر، ثم تشجّع هامساً لوالده كأنه يترجّاه:

- سألحق بكَ.

كانت دعوة مراوغة لإبعاده عن الكلبة، فانصاع لطلب ولده، وسلك طريقاً أقصر إلى البيت.

لا يعرف كم مرّ من الوقت وهو يراقب الكلبة، حين تناهى إليه صدى طلقات، بدا كأنّ مصدرها البيت، فقفل راجعاً يتحسّس روائح الفقد وقد خيّل إليه أنّ الموت صار ساخناً بعد أن تعرّى من كل أقنعته، راح يقترب محتضناً خوفه، كان الباب مورباً، وتسلّل إلى سمعه هذا العويل الفاسد، فيما الكلبة في أثره تتشمّم بنطاله، ودفع الباب بما يسمح له من رؤية كل شيء..

الطريق إلى الرؤية

على قدر الحاجة كانت الرغبة. والخلاء يختفي وراء سياج من الأشجار، ثم يتّسع إلى الحدّ الذي يخلق عشرات الاحتمالات، أمّا من هنا، من هذا المكان، فلا ينكشف لنا ما نبحث عنه، لا مناص من التوغّل إذاً حتى وإن كانت الأرض بقساوة حجارتها وأشواكها، ثم رأى رأياً فجهر به:

- لو سلكنا الطريق المؤدّية إلى العين، لكان أرحم.
- محال أن يكشفا نفسيهما في مكان مستباح.

تقدمنا بالهدوء والصبر، أعيننا متحفّزة وآذاننا متربّصة لأقل نأمة أو حركة، لم يبق بيننا وبين حزام الأشجار غير مسافة يسيرة.

- أششش..

والتفتُّ، فطالعني بعينيه الجاحظتين وسبّابته مشيرة إلى شفتيه كأنه يقول لي (ولا كلمة)، وحين اطمأن إلى تركيزي جثا حتى يخترق بنظراته الفضاء الذي تحجبه الأشجار عبر تلك الفرجات بين الجذوع:

- هل ترى شيئاً؟

وشوشتُ حتى لا نكشف عن وجودنا.

لم يرَ ما يستدعي الرد، وبصمته عدتُ لأرفع صوتي قليلا:

- كيف اختفيا بهذا السحر؟

لكنه تساءل:

- هل حقّاً سلكا هذه الطريق؟ هل سمعتَ حديثهما؟.. هل رأيتهما؟..

لم يوجّه وابل أسئلته إليّ، كأنه كان يسأل نفسه من خلالي، هو الذي أشار عليّ بأن نقتفي أثرهما لنرى:

- طوال عمره وهو يخفي عنّي كيف يتم ذلك.

كان العيب يفوح من الفكرة، لكن الفضول غذّى الرغبة، ووجدتني أنصاع لاقتراحه، ولكن كيف؟..

قال وحديثه يتقطّع بلهاثه من أثر الجري:

- كأنني سمعته ليلا يتحدث عن الأمر، لم أتبيّن أين وكيف؟.. لكن...

قاطعته متهكماً:

- جايب غنا بلا زريعة (1)

- أحسستُ، أقول لك أحسستُ، وقد تأكّد لي ذلك قبل قليل وهو يسحبها بطرف الحبل.

- فأيّ الطرق سلك؟

تقدّم خطوة أخرى وهو يخلّص طرف بنطاله من الشوك، وقال:

- لا مكان لهما هنا، فالدنيا مكشوفة.

ودرتُ أقيس المسافة التي قطعناها من غير هدف، كل هذا المشي على هذه الأرض الموجعة ولا أثر لهما، ووجدتني أوبّخه:

- يا حمار.. كان عليك أن تتعقّبه مباشرة.

- لو كنتُ فعلتُ، فكيف ستعرف أنت بما يحصل؟

ضربتُ كفّاً بكفٍّ من خيبتي فيه، وانفجرت بقهقهة متهكّمة:

- كأنك رأيتَ؟.. قل لي بربّك هل استمتع أحدنا برؤيتها؟..

سكتَ من خيبتنا، وربما قلّب فكرتي في رأسه فوجد فيها بعض الصلاح.. نعم لو مضى مستتراً خلف والده، لأمكن له أن يشهد على ما يحصل، وينقل لي الصورة بأدقّ التفاصيل وأروع الوصف، وأن يهيّج خيالي فيجعلني أرى مثلما رأى.

- الوقت في صالحنا لو تحرّكنا.

- إلى أين؟

تلكّأ في ردّه، وغمغم بما وسعه صبري عليه، فلم أطالبه بالمزيد، ثم سار إلى يمين الحقل وأنا في أثره، اندفع بحرارة وإيمان وتصميم، كأنه يريد أن ينتقم لكرامته من حكمي الجائر، وأن يشهدني بأمّ عيني على الحادثة فينتزع اعترافي به.. بدأت خطواته تتعملق، وشيئاً فشيئاً بدا لي كأنه يطير، فجاريته فيما انبرى له، إذ كانت رغبتي لا تقلّ عن رغبته، وفضولي يتجاوز فضوله، وحاجتي لا تقاس إلا بهذا الحماس الذي دبّ، فأشعل أملنا من جديد..

تسلّلنا كالخفافيش تحت جنح الحاجة، أوقفني أكثر من مرة، أرهف سمعه كحيوان صيّاد، فتح عينيه بيقظة حدأة، تحفّز للآتي، ثم انفجر في وجهي كلغم:

- هل سمعتَ الخوار؟

وقبل أن يسمع ردّي، سال وجهه بفرح طفولي أخّاذ، وعصف لسانه بصرخة مكتومة:

- من هنا..

أوصاني بأن ننسلّ خفية بهدوء الموتى إلى رأس التلّ، ثم نتموضع في مكان تحجبه النباتات، سينشغلان بنزو الثور عليها..

قال.. فلا ينتبهان إلينا.. إيّاك أن تصدر حركة أو تسعل.. سوف تطول الفرجة، راقب فقط...

صعدنا التلّ بخفّة النسيم، وزحفنا زحف الثعابين حتى أشرفنا على المرج، فتراءى لنا خلقٌ كثيرٌ، عشرات الرجال يشمّرون عن سواعدهم، وقد عكست نصال سكاكينهم وسواطيرهم أشعة شمس الصباح الفاتنة، فتردّد صدى الوميض على التلال، وتلاقحت أصواتهم الآدمية المتنافرة بخوار البقرة، والتفتَ يسألني بعينين يائستين وحلق مالح:

- أين الثور؟!.

(1) مثل شعبي في اللسان الدارج الجزائري، يُضرب لمن يأتي بفكرة ناقصة.

كش ملك

كانت الصرخة أقرب إلى ضغاء حيوان، ثم سُمِعَتْ شقشقة بدت لمن أرهف سمعه كأنها صوت عظم يتهشّم، وشيئا فشيئا ذابت الصرخة في ما يشبه العواء، ثم تواتر صداها إلى أن انطفأ في شكل أنين، ولأنّ الظلام غطّى المكان، فلم يكن باستطاعتهم تبيّن ما حدث.

توقّفت أيديهم عن تحريك البيادق، وشخصت أبصارهم، وأصاخوا السمع في انتظار القادم، لكنّ الصوت كان قد انتهى إلى موت صداه.

ليس ثمّة فكرة عمّا يحصل، فالخارج حلكة كالعدم، وقصارى ما فهمه بعضهم على الأقل هو هذه القضقضة التي تلت الصرخة، ثم هدأ كل شيء، الظلام والوقت والسؤال، كأنّ الدنيا تسبح في عطب مميت، لا نأمة ولا حركة، امتداد فارغ من معنى الوجود، وصمت مطلق مريع يحصد العتمة والقبو والطريق والأشجار، وحدها النظرات كانت تشتعل لتنطفىء من جديد بخيبة الجهل.

- ما الذي يحصل في الخارج؟

لو فُتِحَ الباب فسوف يصرّ، وصرير الليل شنيع، تزداد ضراوته كلما اتسعت رقعة الصمت، لا أحد يجرؤ، ولا نوافذ للقبو، بناءٌ يبدو كما لو أنه طُمِرَ في الأرض، يقود إليه سلّم

جرانيتي ضيّق متآكل يصل الطريق ببابه، والباب قديم، خشبه بشحوب ميّت، وبالكاد يسترهم خلفه.

تبادلت نظراتهم الباردة القلق تحت ذبول ضوء المصباح، مجرّد تخمينات لا ترتفع إلى مستوى اليقين، وانتظروا لعلّ أحدهم يكشف عن فكرة فهمه أو يهتك ستر هذا الصمت الذي جثم عليهم فجأة.. كلمة واحدة، حرف يتيم، نحنحة عارضة، أيّ شيء يكشّر عن أنيابه في وجه الهدوء القاتل، فيمنحهم رأس الخيط، ويحرّرهم من قيد الصدمة، لكن لا أحد تجرّأ، فالخارج فخٌّ مميت يجهلونه تمام الجهل، والصرخة وإن كانت لحيوان فهي لا تعنيه وحده، ثم من ذا الذي قطع يقيناً بأنّ الصوت لحيوان؟ فهم لم يتبادلوا حديثاً حتى، فبعد أن صكّ الصوت أسماع بعضهم خلدوا إلى هذا الجمود كجسم حيّ تباغته صاعقة فيسكتُ كل ما فيه، ووحده بقي الضوء يزفر، ووحده انتبه الرجل أخيراً إلى تلك الفضيحة التي يمكن أن يجنيها الضوء وسط هول العتمة، فانسحب من بينهم بهدوء، ومن دون أن ينبس بكلمة مدّ يده إلى القفل، فعم الظلام.

سبح الصمت أكثر، وتلامست الأجساد بحركات خفيفة عفوية واهية، لا شيء يُرَى كما لا شيء يُسْمَعُ، فُصِلَت الحدود بين الخارج والداخل بقتل ضوء القبو، فتمطّى الظلام بفحمة آسنة، ولا رغبة في الحديث خوفاً من الآتي، إنّ من يقتل بمثل هذه الوحشية لن يتوانى عن سحق آخر عظمة في أجسادهم، ومثل الموت حين ينهب القدرة، وجدوا أنفسهم منهوبة وأعينهم شاردة في العتمة وأنفاسهم متردّدة قوية، حارّة،جارفة، وربما فاجأت الواحد منهم سعلة فكتمها بكمّ معطفه، ثم صرف رغبته

تلك في حمحمة لا تكاد تُسْمَعُ، وهم لم يسمعوا طقطقة حذاء أو خشخشة نعل مثلا أعقبت الصرخة، ولا دلّهم صوت حديث عابر تردّد بين اثنين كما يحدث عادة حين يبدأ الصوت همهمة بعيدة، ويروح يقترب رويدا رويدا إلى أن تتضح عباراته، ثم يعاود ابتعاده تدريجياً حتى يتلاشى بنفس الهمهمة التي بدأ بها، هم لم يسمعوا شيئاً كهذا، ولو حدث الأمر بمثل هذه الطريقة، فقد كان بإمكانه أن يغنيهم عن هذا الضياع والخوف الذي هم فيه، ولكن الصرخة بدت كأنها هبطت عليهم من السماء، كصاعقة لم تقدّم البرق إشارة عليها..

هكذا، فجأة نبتت في عراء الليل، فخطفت الأسماع وحيّرت القلوب وعلّقت الأعين بالخارج، والخارج ظلام كالموت، أما الداخل فصمت يطوي كل حلم تحت جناحه، إذ لا أحد يعرف إلى متى سوف يستمر الوضع، ولا إلى ما سوف يؤول، فقد تقطّعت بهم السبل إلى معرفة الخارج، كفئران يغتصب حرّيتها شرك من معدن، فلا تملك غير نظرات الخوف والانتظار..

وانتظروا بكل ما ملكوا من صبر لعل الصوت يعود، صرخة حنجرة أو قضقضة عظم أو خشخشة نعل أو همهمة لسان، أيّ شيء يخلصهم من عذاب الظلمة والسكون الذي ارتسم فحيحاً في أعينهم، برقة تلوح في محيط هذا الفراغ الذي حوّلهم إلى ظلال باهتة ميّتة، إلا أنّ لا شيء من ذلك حصل، وسرعان ما تسلّل الملل إلى نفوسهم، وأذعنوا لحقيقة ما هم فيه، فنبس صوت بدا أقرب إلى الهمس:

- نشعل الضوء.

لم يعترض أحد، شعّ النور يملأ المكان، وعادوا بحرارة إلى

مواصلـة لعبهـم، انكبـوا عـلى رقعـة الشـطرنج مـن جديـد، وجلجـل أكثـر مـن صـوت:

- كش ملك.

القصر

أجمل ما في القصر أعمدته الرخامية العالية وطائر الطاووس الذي يراوح في المكان نفسه من البهو، غالبني قهرٌ بأن أستمتع بخيلائه لمسافة يرضاها القلب، فضربت كفّاً بكفّ، لكنه ظلّ واقفاً لا يتحرّك، عاودتُ التصفيق مع صراخ أطلقته حتى أفزعه فيمشي أو يطير، غير أنّ رجائي خاب مرة أخرى.

حملتُ ما طالته يدي ورميته به، فابتعد قدر ما يجنّبه الأذى، ثم عاد إلى وقفة شموخه بلا حركة. لكن الضجيج الذي أحدثته كان قد استفحل في المكان، فخرج الناس من شقوق الجدران، وتداعت الأعمدة، وهوى السقف بما فيه من ثريّات، انطفأت الأنوار، وتدفّقت دماء بلا ذنب ولا جريرة.

من الغريب أنّ كل ما حدث لم يمسسني بسوء، ولحيرتي رحتُ أسأل من بقي على قيد الحياة:

- لم حدث كل هذا الذي حدث؟

لم أظفر بجواب، وتصاعد دخّان كثيف حجب الرؤى، وثار غبار في الجو خنق الأنفاس، ثم طلع صوت من تحت الركام يقول:

- حسناً فعلتَ.. لقد سقط القصر..

السّاقية

حين عبرتُ الساقية رأيته، تبدّى لي وهو يصارع شيئا لم أتبيّنه، ثم عاودتُ النظر إلى الماء كأنّي أطمئن إلى سلامتي، فقد كنتُ أدرك أنّ الساقية تعجّ بالسرطانات، كلاليبها المروّعة، حركة سيرها المتثاقلة، وقدميّ الحافيتين.. الحقّ أنّي لم أكن أعرف من خطر هذه المخلوقات الصغيرة إلا ما بناه خوفي وطوّعه وعيي ورصدته معرفتي الفقيرة.

كانت أعينها الصغيرة الناتئة، وأرجلها الرفيعة الحادّة، وقشرتها المتينة، ثم هذه الكلاليب المستعدّة لتمزيق أيّ شيء يقع تحتها، كل هذا كان خبرة ملاحظة لا أكثر، ومعرفة تفتقد إلى صميم الحقيقة، فأنا لم أر مثلا أحدهم وقد أطبقت عليه كلّابتها، ولا سمعتُ أنها ألحقت أدنى أذى بأيّ كائن، لم يكن لديّ غير معرفتي بها، وحكمي عليها الذي قطعتُ به في خطورتها. لأجل هذا كنتُ أتحاشاها قدر ما أستطيع، وأتجنّب المواقع التي تكون فيها، وأحجم عن النزول إلى الماء وأنا حافي القدمين.

كان هذا مبلغ إيماني وحدود طاقتي حتى هذا اليوم على الأقلّ، حين اندفعتُ كالريح متستراً بأحراش الحقل، مراقباً بعينيّ حدأة والدي وهو يدفع هذا الشيء أمامه ويتخطّى به السياج، ثم ينزل ضفّة الساقية، فتحجبه كثافة العليق عن الرؤية وتجعل بيني وبينه سداً، وقبل أن أتدبّر أمري في طريق سالكة للّحاق به، كان قد اختفى، صعد الضفّة الأخرى، وتوغّل في ما

يليها من خلاء، لا شيء أمامي، ولا أثر يدل على وجوده، وقفتُ متردداً على الحافّة، أرمق صفحة الماء الصافية وهي تكشف خبايا حصواتها الرملية المتفاوتة الأحجام والأشكال والألوان، وأبحث بعين مدرّبة ماهرة عن مكامن الخطر الذي قد يلحق بي من تلك السرطانات اللعينة لو أنا فكّرت في اجتياز الساقية، قلّبتُ بصري بين الضفتين، ففي الحمإ الذي يخفي جحورها لا يمكن لك تبيّنها.. قفزة أتجاوز بها المنحدر حتى لا تنغرس قدماي في الوحل، ثم أكون في قلب الماء إلى أن أطير بقفزة أخرى أتجاوز بها طمي الضفّة الثانية..

قدّرت بيني وبين نفسي سعة المسافة وكمّ الوقت، قدّرت أنّي حافي القدمين، وأنّ أيّ خطأ قد أدفع ثمنه عضّة سوف تنهي حياتي، عليّ أن أعاود الرجوع إلى الوراء، إلى مسافة تمنحني فرصة الجري، ثم الاندفاع، فالطيران إلى قلب الساقية.

شمّرت بنطالي حدّ الركبة حتى لا يثقله بلل الماء فيعيق سرعتي، ثم فكّرت في خلال ذلك في كل هذا الوقت الذي هدرته في تردّدي، ربما ابتعد أبي إلى قدر أخفاه عنّي، وأنّ محاولتي في اجتياز الساقية لا تعدو أن تكون هباءً، كان كل شيء يجري في رأسي بسرعة جنونية، الإحجام والإقدام، الخوف المقعِدُ والاندفاع العاصف، التفكير المضني والنظرة المشتتة اليائسة، إلا أني سرعان ما حزمتُ أمري، وانطلقتُ كما ينطلق السهم من وتره حتى وجدتني أقع كحجر في الماء، والرذاذ يتطاير حولي، وخوف فاسد يلجم كل شعوري، درتُ حول نفسي كأنني غير مصدّق لما أقدمتُ عليه.. أنا في قلب الساقية، أضغط بكل ثقلي على رمل متحرّك، فينتشر الدبيب في قدميّ كوخز سرطانات

زحفت نحوي تحت غطاء ما عَكّرتُهُ من ماء.. توالد الخوف أكثر، وقبل أن أقع فريسة يأسي رحتُ أنطلق بأقصى سرعتي نحو الضفة الأخرى.

لمحتُ جذعه، فيما حجبت الأشواك الباقي من جسده، والتفتُّ إلى الساقية لأثبت لنفسي حقيقة السرطانات، بدا الماء في انسيابه بخريره الواهي الشفّاف يجرف ما تكدّر من أثر سقطتي، ليعود رويداً رويداً إلى صفائه الأول. لا أثر للسرطانات التي توهّمت دبيبها ولا للخوف الذي تخيّلته، فرحة مفاجئة صغيرة تلوح في وجهي، وسؤال عالق في الحلق:

- ما الذي يحدثُ؟!

لم يتحرّك والدي، ولا تنبّه لوجودي، بدا كأنما يعالج أمرا بين يديه، فينعكس ذلك على سحنة وجهه، عضّة على الشفة السفلى وإغماضة العينين في شبه غيبوبة، ثم أنّة طويلة حادّة تخرج بنار الألم من جوفه. لم يكن حافياً حتى يأخذني الشكّ إلى عضّة السرطانات، وما كان يدفعه أمامه لا يوحي بأنه كان سبب ما لحق به، ثمّة شيء لا أفهمه وأنا أقف غير بعيد عنه، والطبيب يطل بعينين يائستين من وراء نظارته السميكة:

- أنت أكبر أبنائه أليس كذلك؟

أومأتُ برأسي مؤكداً على قوله، والغثيان يملأني.

- والدك مصاب بالسرطان.

دارت الأرض والسماء، عدتُ أنظر إلى الساقية، كانت شمس الظهيرة تلهو بصفحة الماء، فتنعكس أشعّتها كسهام مضيئة، لا أثر للسرطانات، والخوف يحفر في الروح فيما الطبيب يتوكّأ على انتظاره:

- سرطانات الساقية؟

أخفق في فهمي، فصرفني بلباقة، ووعد أن يسوّي الأمر بطريقته، أما أمّي فقد حذّرتني بهذا العويل المخنوق من إفشاء اسم المرض - الخامج (1) على حدّ قولها - بين إخوتي وأترابي، وحين هجستُ بما يؤرق قلبي، قالت بصوتها الحزين:

- سوف تجفّ الساقية.

(1) دارج جزائري معناه الوسخ.

ظلّ الموت

لم يمت في ذلك المساء، والذي حدث كان مجرّد وخزة خفيفة حانية ذكّرته بالموت، وحين يُسْأَلُ: ما الذي دار في رأسك وقتها وأنت تشرف على الهلاك؟.. يجيب بكل بساطة: لا أعرف..

هل يرادُ له أن يصف، هو الذي لا يجيد الوصف؟ .. هل نطمع في إحساسه بتلك التجربة العميقة؟.. للحقّ.. أحسّ، ولكن كيف يصف ذلك الشعور؟ كيف يقوى على تصريف الهول في كلمات؟ كيف بإمكانه أن يكشف عن الموت قناعه، فيعرّيه لمن لم يره، ويفضح أخصّ خصوصياته؟.. والموت لا يشي بكل أسراره إلا إذا عاشك كاملاً من شعر رأسك حتى أخمص قدميك، أما هو فقد بدا له كأنّ الموت مارس تجربته معه لا أكثر، ألقمه ثديه حتى إذا دار المذاق على لسانه سحب حلمته، وبقي يتفرّج على وجهه، ووجهه لم يره في المرآة، ولم يكتشف حجم الخراب الذي مسّه في تلك اللحظة الفاتنة..

هل قلتُ فاتنة؟.. نعم ربّما بدت كذلك حين يتجاوز الإخفاق قدرة الكائن، ويسقط الوعي في فخّ استسلام خالص، وتبدو الهزيمة كاملة بكل شرورها.. ماذا يتبقى من الخلاص غير الإيمان بقدرية اللحظة كيفما كانت، واللحظة لم يفهمها، أكانت طويلة كدهر أم قصيرة كطرفة جفن؟.. ابتلعته في جوفها كما تبتلع حيّة كائنا يصغرها بعشرات المرات، ذاب كل شيء وقتها، الوعي واللاوعي، الوجود والعدم، النور والظلام،

دوامة تسحب ما فوقها إلى قاع عميق بلا قرار.. ماذا تبقّى منه إذن؟!..

- يا الله ...

أطلقها دون الشهادة، جافّة، خاوية، ضارعة، شاكية، باكية، خيّل إليه أنها ملأت الأرض والسماء، وأنّ من كانوا على مبعدة أمتار منه قد بلغتهم واضحة جليّة، يقطر منها الألم والحاجة..

أكان حقّا في حاجة ليد كي تردّ عنه الموت أو لعين تشهد احتضاره؟.. لا يعرف، فهو في لحظته تلك لم يحدّد معنى ما كان ينتظره، فقد كانت صرخته تعبّر عن كل شيء ولا تقول أيّ شيء، كأنّ باطنها إلى الله وظاهرها إليهم، أو كأنه كان يطلب يد الله في أيديهم..

ولم يسمعوه، فقد كانت الريح تصفّر، والحقل يذوب تحت غلالة شمس العصر، فيطفح جلد الأرض بلون ذهبيّ مشتعل، وتتراءى قمم أغصان الأشجار وهي توشوش بحفيف باكٍ، يختلط كل ذلك بما يصكّ سمعه من هذه النوبات لصياحات ديكة الحبش وقد غطت على كل صوت دونها..

بدا أنهم بعيدون، فضاعت الصرخة الأولى هباء، ونفدت القوة التي تطلق نداء آخر، وانحصر الأمل في ما يمكن أن يباشره بنفسه، عليه الآن أن يختار بين إرادة الحياة أو يأس الموت، فمال إلى الأولى، اعتمد على راحتيّ يديه، بسطهما على الأعشاب والحجارة، ثم دفع بثقل جذعه إلى أعلى كي يُخلّص مؤخرته ممّا انغرس فيها، بلغه صوت احتكاك غريب سمعه بأحشائه، وأحسّ لزوجة داخلية تملأ وعيه، نعم، لقد اخترقه جذع قصبة في سقطته تلك، لكنه لا يستطيع أن يحدّد وبالضبط الموقع

المتضرّر في جسده، تحامل في مشيته، وصدع لدفقة الغريزة وهي تحرّك ساقيه الواهنتين وسط نتوءات القصب، حتى بلغ أرضاً معشوشبة، فغشيه إحساس بضوء فاره، لطمة بياض تأتي متثاقلة إلى أن تبلغ بصره فتتحوّل إلى ظلام مقيت، وطنين حادّ يحاصر سمعه، فيهوي إذّاك على الأرض..

بعينين مفتوحتين ترصّد العشب في ميله إلى صفرة الذهب، فالمنظر هو كل ما يقع في مجال رؤيته وهو ملقى على جنبه الأيسر، ثم تناهى إليه خبب أقدام وصياحات ذعر، لكنه انشغل عنها بهذا الدم الذي بدأ يشخب فيشكّل خيوطا رقيقة تنساب بين شعيرات الفخذ ثم تميل إلى سمانة الساق اليسرى وتهوي في قطرات متتابعة على رؤوس الأعشاب.

أيموت؟..

أيكون الموت بمثل هذه الطريقة الغريبة، في لحظة عاصفة تخلّف وراءها ما لا يمكن فهمه؟.. أيموت بهذه العبثية الشنيعة، وبمثل هذا الخطأ الذي لا يد له فيه؟ كيف لم ينتبه وهو يحاول سحب الغصن الضخم المغروس في الأرض، ليجعل منه دعامة سقف لبيت ديك الحبش؟ كيف أفلتت يداه الغصن؟.. عناده المغروس في قوته وطيش بيّن واستهتار شباب، لم يدرك أنّ اللحاء سوف يقتله، سحب بقوة، ثم عاد فغرس قدمه اليسرى في الأرض، واعتمد على اليمنى في توازنه وشدّ بكل طاقته وسحب، أفلتت قبضته الغصن، ووقع ..

أيستحقّ مثل هذه النهاية؟

أعادته صفعات على وجهه إلى الوعي، نظر إلى السماء الصافية، تأمل جنبات الحقل وقد غاص في لون ذهبيّ مشتعل،

وبينهما سالت خضرة أوراق أشجار المشمش بفتنة آسرة، وعلقة خوف من الموت تجوس بأعماقه..

مدّ سبّابته اليمنى على العشب، وتأهّب للموت..

الجنازة

لا أعـرف كيـف تخطّينـا ذلـك اليـوم، فقـد كان مسـاؤه بـاردا عـلى روحـي، شـمس الأصيـل المريضـة لا تبـين مـن وراء السـحب إلا عـلى فـترات متباعـدة، قـال وهـو يهـرول خلفـي وينسّـق الكوفيـة القـذرة عـلى رقبتـه بيديـه الخشـنتين:

- قدّر الله.

أومـأتُ بـرأسي، كأني أقـول لـه.. لا راد لأمـره، أمـا وقـد فرغنـا مـن مراسـم العـزاء، فليـس لنـا غـير العـودة، والتفـتُّ إليـه لأرى أثـر كلامـي عـلى وجهـه، كان لا يـزال يحجـل في مشـيته محـاولا اللحـاق بي، بلغنـي لهاثـه، ثـم سـعل وحـشرج وبصـق في الريـح. توقّفـتُ ريثـما يلتقـط أنفاسـه، فقـد حـدّب ظهـره بـما يكفيـه ليواجـه الأرض، واسـتغرق في الاتـكاء عـلى ركبتيـه براحتـيّ يديـه:

- لم لا تتوقف عن التدخين؟

ظـلّ يابسـا في مكانـه، يشـخر كحيـوان وقـع في شرك، ثـم تحامـل ببعـض الجهـد، فرفـع عينـين محمرّتـين نحـوي مغالبـا سـعاله:

- حـ....ا...ولـ....ت وا لله ..

- سيقتلك.

رغـم أنّ لعابـه امتـد كمخـاط بـين شـفته والـتراب، فقـد بقـي يحـاول إقناعـي:

- العمر واحد.

ما زال أثر السعال يحوم في صوته، إلا أنه رفع قامته، وهجم على فمه بكمّ معطفه الرث، ثم نظر في عينيّ كمن يسألني أن نواصل السير..

- أأنت بخير؟

- لا تقلق، فلا علاقة للأمر بالتدخين.

- نزلة برد؟

كان قد مسح كل ما علق بشاربه من أثر نوبة السعال، ظل الاحمرار يكوي عينيه الباردتين، لا أثر للشمس التي تغيب طويلا، فتفسح الطريق لهبوب الرياح الباردة، تلفّعتُ أكثر بمعطفي الصوفي، وأحكمتُ قفل سحّابه حتى أسفل ذقني، وانتظرت جوابه بشيء من القلق، بعد أن عاد يهوي بجذعه إلى الأرض.. كأنه يتقيأ أو كأنّ يدا خفيّة تُحْكِمُ قبضتها حول رقبته، فقد عادت الحشرجة تعبث به، وتشبّثت يده هذه المرة بأقرب جذع شجرة:

- ا..ع..ع...ع...ع..

أمهلته بما يليق بالمرضى من وقت لمعاودة ترتيب وفهم آلامهم، غاص في قرار من التيه والتعب، بدا ذلك من عينيه الكسيرتين، ثم فجأة دلق كل ما في بطنه، انفجر كبالوعة تحت وقع الضغط، وتسلّلت تنهداته إلى سمعي، كأنّ وعيه بالأشياء يعود، ترك الشجرة منسحبا ببعض العثرات إلى الوراء:

- اللعنة.

سحل وجه الحذاء على ما طاله من عشب الأرض، فلم يفلح في تنظيفه، سحبتُ منديلي، فتناوله وهو يقول:

- ليست المشكلة في السجائر والله، فأنا أدخّن طوال عمري.

- معدتك؟

بلع ريق الخوف وحدّق في وجهي:

- الموت.. الموت هو ما يصنع بي كل هذا.

وانحنى يمسح حذاءه من آثار القيء، تاركا نظراتي تتخبّط في جوابه، لم يمهلني لأسأل.. ما علاقة الموت بما نحن فيه؟ وواصل:

- لولا أنّي أحترم والدك، ما كنتُ حضرتُ.

عصف بي جوابه كما تعصف هذه الريح الباردة بنا، وقلَبتُ رأسي في السماء، كانت العشيّة قد أزفت، فبدت الغيوم تتكاثف أكثر منذرة بالمطر..

- لا غرابة فيما قلتُ.. قال.

- لكنه الواجب.

عاد يتبعني كظلّي، متهدّج الصوت يعلّل ما استغلق عليّ فهمه، قال إنّه لا ينكر أنّ حضور الجنازة، أيّ جنازة واجب، فما بالي بجنازة والدي الذي يعرفه حقّ المعرفة، لكن لا حيلة له في الأمر، فالموت يصيبه بهذا الغثيان، وهو لا يحتمل هذه الرائحة التي يطلقها.

كنتُ أنتحبُ في الوقت الذي بدأت فيه السماء تمطر، وكان يقول بصوت قاتله البرد:

- لا أعرف كيف سنتخطّى هذا اليوم.

والحقيقة أنّي ولحدّ اللحظة، لا أعرف كيف تخطّينا ذلك اليوم بكل ما فيه، فقد مشينا جنبا إلى جنب بما بقي لنا من حزن ومرض، وربّما انتبه إليّ وأنا أجهش بالبكاء كلما أغرقنا في الصمت، ولكنني على يقين كامل من أنّ الموت بلا رائحة، إلا

أنّ مـا أصابنـي بعدهـا مـن عـدوى ذلـك المـرض الغريـب جعلنـي أفكّـر بعمـق في هـذه الرائحـة كلـما عبرتنـي جنـازة.

حديقة الله

... وأقبلتُ كغيري من زوار المكان أبحثُ عن الأنس، فاستوقفتني جلستها في طرف الحديقة تحت الشجرة كاشفة عن فخذين فاضت منهما ملاحة أنثوية فاتنة، وشى الوجه بجمال معجّز، وفكّرتُ في الانسحاب من المكان غير أنّ ملامح بسمة لاحت على محيّاها أقعدتني عن قراري وسلّمت يدي طواعية للهوى، فاخترتُ لنفسي طاولة على مقربة منها، ورحتُ أسترق النظر إلى حركة ساقيها وهي مستغرقة في تعديل جلستها ما جعل تنّورتها تنحسر أكثر عن فخذيها، جاهدتْ إذّاك بشيء من العناء في إخفاء فتنتها، وتطلّعتْ بعينين حالمتين إلى الشجرة التي تظلّلها، فقلتُ أحدّثُ نفسي بصوت سقط كالرعد في قلبها:

- هل أستحقّ مثل هذا الموت؟..

أشارتْ بهزّة من رأسها إلى ثمرة في أقرب غصن إليها، وهمستْ:

- علينا أن نجرح هذه الشجرة قبل أن نبرح الحديقة..

فأطعتُ...

ضوء بعيد

ضوءٌ يتسرّب من أسفل الباب المغلق، فيكشف المكان، لكن مسافة الوصول إليه تبدو لي ببعد شاهق، تركتني هنا، وانصرفتْ.. اليد الزاجرة تلاشت، فتفشّى شعورٌ غامرٌ بالحرّية فتح شهيّتي للحديث:

- دادا.. دادا..

لا مجيب، وحين غصّ المكان بالصمت؛ تململتُ، كانت الأحزمة تشدّ على صدري، فتسحبني بقوتها إلى جسم "المشّاية" لا فكاك ممّا أوقعتني فيه وهي عنّي لاهية..

بإمكاني الآن أن أتحرّك، الاندفاع في أيّ اتجاه تحدّده ساقاي الطريتان، وهما توجّهان عجلات "المشّاية" أستطيع بعدها أن أندفع ببعض القوة التي تزيد كلما دارت العجلات أكثر، لكن الاصطدام واردٌ، فالمكان غارقٌ في هذه العوائق التي تظهر لي بين كل حين وحين، وآخر مرة حدث الأمر كحلم، بلغني الصراخ، وسمعتُ صوت ارتطام هائل على أرض الغرفة، ثم تحلّقوا حولي، كان الرعب ينهش وجوههم، والفوضى عالقة في أعينهم، وأسئلة تتزاحم على ألسنتهم. لم أصب بأذى، لكنني أجهشتُ ببكاء مرّ من هول ما رأيتُ، امتدت يداها ساعتها تسحبني من شَرَكِ الأحزمة، لذتُ بصدرها كفرخ في عشّ، ورحتُ أرقب الهدوء من وراء غلالة دموعي وهو يعود إلى المكان..

شـظايا الرخـام تناثـرت عـلى طـول مسـاحة البـلاط، أمـا الكومودينـو فقـد انحـرف بمقـدار انشـات عـن أصـل مكانـه، كيـف حـدث الأمـر بـكل هـذه السرعـة الفاتنـة؟ الاندفـاع لم يكـن بتلـك القـوة التـي تنتـج كل هـذا الخـراب، بطيئـا تحرّكـتُ، حركـة خفيفـة كأنفـاس نسـيم في ورقـة شـجرة، دارت العجلـة، فألهمـت سـاقيّ عـلى طراوتهـما بعـض القـدرة، ثـم أحسسـتُ ببعـض المهـارة التـي نبتـت في عضـلاتي، دفعـة أخـرى، زادت العجلـة مـن جنـون دورانهـا أكثـر، كالحرّيـة، كالسـهم كنـتُ أطـير وأغنّـي، ثـم فجـأة توقّـف كل شيء، تزحزحـت "المشّـاية" إلى الـوراء قليـلا وارتـجّ الكومودينـو وهـوت المزهريـة..

لـن أجـازف هـذه المـرة، فالاندفـاع يكلّـف الكثـير، غـير أنّ الضـوء الزاحـف مـن أسـفل فرجـة البـاب يغـوي كغيابهـا الـذي طـال، ففتـح في القلـب رغبـة الوصـول إلى ملامسـته، قلّبـتُ رأسي أبحـث عـن صوتهـا، لا أثـر.. الهـدوء الكبـير، دفعـتُ المصّاصـة إلى فمـي، وعـدتُ أتملمـل مـن جديـد، كانـت الأحزمـة تشـدّني بسـحبها الخـارق، ولكـن عزيمتـي في التحـرّر فاقـت كل قـوة، لـن أهـدأ حتـى تقـضي الحركـة أمـرا أبيّتـه، عـليّ أن أتملّـص مـن هـذا الـشَرَك، الاهتزاز يوفّـر الحـلّ للوقـوع، رحـتُ ألغـو، وأضرب بقبضتـيّ يـديّ عـلى حافّـة المشّـاية، ورجـلاي تنغرسـان في الأرض، فتمنحـاني بعـض قـوة الوقـوف العقيـم، كنـتُ كمـن يرقـص عـلى إيقـاع تصفيقـات، فـرحٌ لا حـدود لـه ونشـوة غامـرة فاتنـة، فيـما الاهتـزاز يزيـد، والحركـة تتنامـى، والمشّـاية تستسـلم، فتميـل بـكل ثقـلي عـلى الأرض..

- باااااااااااااااااااااااااااااااااف...

لم أبـكِ، وتهيّـأ لي الكـون في رؤيـة أخـرى، انقلبـت الأشـياء والأثـاث،

أيــن الســقف مــن الأرضيــة؟ مازلــتُ عالقــاً كــدودة في شرنقتهــا، وبــروح فراشــة رحــتُ أفــكُّ الأحزمــة بتخبّــط بــدا كالزحــف، ركلــتُ الجســم المعــدني مبعــداً إيّــاه عــن مســاحة إحســاسي، بالــكاد تحــرّرتُ، وفرجــة البــاب عــلى بعــد يســير، هنــاك حيــثُ ينفلــتُ الضــوء بإشــعاع صاخــب لذيــذ، كنــتُ لا أزال في وضعيــة الــدودة، بطنــي ورجــلاي تلامــس البــلاط، وبيــديّ رفعــتُ صــدري قليــلا، ثــم رحــتُ أدفــع جســمي برجــلي اليــسرى، وأســحب بيــدي اليمنــى وجــه الأرض، حتــى إذا تحرّكــتُ بضــع ســنتيميترات، وجدتنــي أســحب باليــد اليــسرى، فتنغــرس ركبــة الرجــل اليمنــى في الأرض، ناوبــتُ حــركات أطــرافي بإيقــاع مــدروس، وعينــان ترنــوان إلى فلتــة الضــوء فيــما جســمي يقــتربُ الهوينــا، وفرحــة حــبّ تجثــو عــلى شــفتيّ.. هــذا هــو الخــارج عــلى بعــد ركلــة قــدم وســحبة يــد، لم تبــق لي غــير دفعــة واحــدة، ثــم أهــوي بــكل طيــشي وثقــلي في لــذة الحرّيــة..

كانــت أمّــي تــصرخ كعادتهــا، فانفجــرتُ بالبــكاء، ويدان تســحباني نحــو الخــارج، حيث الضــوء يتكاثــف، فأشــهق بالعمى.

المعركة الأخيرة

لا أعرف الرجال معرفة كاملة، ولم تكن بيننا سابق علاقة، فقد جرت تصاريف الظروف بوضعنا في ذلك اللقاء العنيف الذي أنبت أشواك الشّك وعصر اليأس من انتظار بلا معنى..

جلستُ في المقهى وبصري على الطريق وقلبي يتأمل الغد بهذا الخذلان العاصف حتى قال:

- لا تقلق.. كثرة نأخذ منهم جوازات سفرهم، ثم نعيدها إليهم مع مبالغ مالية محترمة.

- هل تعرف هؤلاء الرجال؟

- هو أول لقاء بيننا، وقد وثقتُ بهم كما وثقت بك.

- لكنهم غابوا طويلا، وأخاف أن...

قاطعني بضحكة فاجرة، بدا لي أنه أحدهم، هو رأس العصابة ولا شكّ، تساءلتُ بخوف من يُلْقَى به في غياهب جبّ.. هل سأكون فريستهم المرجوّة؟ ثم جعلتُ أقيس الماضي بالحاضر وأفاضل بين حياتي السابقة واللاحقة إلى أن دخلت علينا ضحيّة أخرى تعاني ما أعاني من ضياع، فركبتني هواجس لا حصر لها قذفت بي إلى قعر أسئلة ميّتة.. أيّ الأعداد أنا بين هؤلاء الضّحايا؟ سيتصرّفون بجواز سفري في أفعال مشبوهة، وهل سيكون الكذب فخّ الطمع الذي يُطْبِقُ عليّ دون رحمة فينتهي بي إلى السّجن؟..

ومــن يــأسي رحــتُ أضربُ الرجــل بــما ملكــتُ مــن قــوة، ومــا اســتطعتُ مــن حقــد، ثــم غــادرت المقهــى باحثــاً عــن رجــال يصلحــون لمعركتــي الأخــيرة.

غسيل

تحت الشمس المريضة تقرفص، تفترش حصيرة حلفاء مسندة ظهرها إلى جذع شجرة دردار، تتأمل الصبية في لعبهم بعين أنهكها العمر، وحين يعلو شجارهم تخرج عن طور الهدوء إلى حاجتها للنهوض، لكن...

ما أثقل الجسد وأبطأ الحركة لو هي حاولت ذلك، فسرعة هؤلاء الشياطين لن تمنحها فرصة فهم ما يجري، لذلك فهي تستعين على ردّ شعاع الشمس عن مجال بصرها بتظليل عينيها براحة يدها وهي على قرفصتها تلك حتى تتمكّن من رؤية هذا الملعون الذي يرفث في كلامه، لكنهم يتشابهون، وفي بعدهم تخسر تحديد البادئ بالشجار كما تجهل أيّا من هؤلاء الملاعين الذي يمطر الدنيا بفحش قوله..

ثورات لعب وغضب ونزق وطيش.. فليكن، لكن لم كل هذا السباب؟

ربما لاعتقادهم أنّ ثقل السمع من وهن العجز، بإمكانهم أن يقولوا ما شاءوا فلا شيء يبلغ مسمعها، وأما بطء حركتها فسوف ينجيهم من كل زجر أو وعيد، وهي تختار هذا المكان بالذات لأنه يكشف امتداد الساحة حتى آخر السياج، وفي جلستها تلك تطمع في بعض دفء الشمس الذي يرد عنها ألم مفاصلها ويكفيها شرّ الطبيب الذي ما ينفكّ ولدها يذكّرها به:

- عليك بالطبيب يا أمي.
- أنا بخير..

الألم لسعات سيجارة، نوباته تمرّغها في اليقظة، وهي تلجأ إلى التدليك مرة وإلى دفء الشمس مرات.. كل شيء يتدلّى منها، أعوامها الثمانون، جسدها المترهل، هذا البنيان المرصوص الذي انتهى إلى الخراب، العين كليلة، القرفصة تطول، والأطفال كعهدها بهم شياطين يخرجون عن كل سيطرة، يأكلون الأخضر واليابس، يكسرون أوتاد السياج الشوكي، يتسلّقون الأشجار بخفة قردة، يطاردون الدجاج، يقذفون الكرة في كل الاتجاهات.. صرخت بملء مللها:

- راكم توسخوا لي الغسيل..

ابتعدوا كما اقتربوا، بنفس الجنون والسرعة والطيران كأنّ الهواء يتقاذفهم، وأخوف ما يخيفها أن يتمكّن أحدهم من ملاحظة هذه القطعة النابتة بين الغسيل، فما أكثر ما حذّرت، وتوعّدت، ونهرت، وانهمرت بوابل من التأنيب:

- كيف تسمحنّ لهم برؤيته؟
- يا جدّة مش عيب..

نظرات الريبة والخوف، اللون يغري، صغر حجمه يفتن، والأطفال أعين صقور، والفتنة في يد الحبل، في يد الهواء يقلّبها كيفما شاء، والكبار يعبرون بمحاذاة السياج، قد تطيش منهم نظرة، تشتعل رغبة، تضطرم حاجة:

- لا..لا يمكن ذلك.

مثل هذه الأشياء لا يجب أن تُرَى، على صغر حجمه، على ذوبانه بين عشرات القطع، فساتين، بنطلونات، كنزات، تنانير،

وجوارب.. يطل هو، يتحدّى كل شيء ليكشف عن لونه، ويفتح تلك النار العاصفة في عين كل ذكر:

- عيب يا يمّا انشريه في الحمام، في الداخل، في مكان لا تبلغه عين ولا تطاله نظرة.

لكن البنات صغيرات، عارفات، غير آبهات، يتضاحكن، باستهتار يتهامسن، بدلال يخرقن القواعد:

- جدّة تخرّف

فليكن إذن رمز بلوغهن، إشارة خفيّة سرّية من شجرة جسد نضج سفرجلها، به يقلن بالصوت العالي لم تعد ثمارنا فجّة، وبألوانه الزاهية يلوّحن للأعين الجائعة، والجدّة تعترض، بأعراف الأخلاق تفعل، بالحشمة والحياء تحتج وتتساءل مثلما تساءلت مئات المرات:

- ما الذي يعلّمونه لكنّ في المدارس؟
- يا جدّة هذا غسيل كباقي الغسيل.
- الرايح والجاي يتفرّج عليه.
- لا أحد يهتم.. أنتِ فقط ..

تقاطعهن:

- أنا مجنونة.. الويل لكنّ..

شكواها لم تعد تجدي نفعًا، وهي تلمّح لابنها أكثر مما تصرّح، وولدها لا يفهم من احتجاجها على البنات غير شكوى بريئة فلا يزيد من علاج الوضع أكثر من قوله:

- خلّوا جدّتكم **tranquille**

يفهم الأمر بطريقته، تباين أجيال، للكبار فهمهم الذي لا يجب أن يفرضوه على الصغار، وللصغار فلتاتهم، طيشهم،

حياتهم، صخبهم الذي لا يلجمه قول ولا يردّه فعل، أما هي فمن العيب أن تقول كل شيء.. الساحة مكشوفة، العابرون كثر، الأعين متلصّصة، ماكرة، كالملح تأكل كل شيء، والحبل يمتد بين شجيرة المشمش وجدار الطين، وشمس الخريف مريضة بالكاد تستطيع أن تجفّف الغسيل، وهو في يد الهواء يتقلّب، يغري، يشعل شيبها من دون أن تأبه له عين..

الرجلان

الرجلان لا علاقة بينهما قبل اليوم، لا أحد يعرف الآخر.. جاءا في الليل والظلام يشعل كل شيء، ناداني أحدهما فقمتُ متثاقلا نحو باب نفسي.. ظهر الرجل الذي لقيتهُ صباح هذا اليوم في المقهى، تحدّث طويلا، واستمعتُ إليه بدفء المعرفة القديمة. سألني عن الصحة والأهل.. فقلتُ: إنّي بخير، ثم راح يلهو بكرة كانت قريبة من متناول قدمه، جرى ونطّ في الهواء.. بدا لي كمهرة في مرج. لم يتناسب أبدا لعبه ذاك وطوله الفارع، ولم يكن رشيقاً بما يكفي لكي يقنع شعوري بأنه لاعب ماهر محنّك..

كان يقذف الكرة بعشوائية ويطاردها، ثم فجأة زلّت قدمه، فانكسر الحذاء الذي كان ينتعله، لسبب ما كان حذاؤه ذاك مصنوعاً من جذع شجرة، تبعثر الخشب فاكتشفتُ هشاشته، كأنه قطعة من فلّين، بدا منظره ساعتها يدعو للسخرية والضحك، لكنه تطلّع إليّ بعينين مفعمتين بالثقة وهو يقول:

- لو كان سعيد معنا لرأيتَ العجب..

ضحكتُ بصفاء قلبي، فأنا أعرفُ سعيد ..

وجرّتني الضحكة إلى وعي اليقظة، وأنا أقول لنفسي: ولكن لا معرفة بينكما، فقد كانت ظروف عملي في مدينة أخرى هي التي عرّفتني إليه، وهو رجل رزين هادىء حكيم، ولا يمكن

لأيّ مخلـوق أن يسـخر منـه بتلـك السـهولة التـي يعتقدهـا، وقبـل اليقظـة قلـتُ لسـعيد:

- هـل تعـرف؟.. توعّـد عبـد الحميـد بـأن يريني العجـب منـك..

انفرجـت أسـاريره عـن بسـمة اسـتهزاء واحتقـار، وهـو يقـول بتعجّـب:

- عبد الحميد ؟! ولكنّي لا أعرفه ...

قلـتُ أعـرف أنـك لا تعرفـه ولا هـو يعرفـك، لم يسـبق لكـما أن تعارفتـما ولا جـرى بينكـما أيّ لقـاء يُذكـر قبـل اليـوم ..

وتركتهما وعدتُ إلى النوم.

حادثة لوحة

فاجأني الدم المتسرّب من أسفل العتبة وأنا أهمّ بفتح الباب، تراجعتُ إلى الوراء قليلا، إلى قدر مسافة تجعلني أفهم ما الذي يحدثُ. السيّل يغطّي البلاط ممتداً بحركة زحف وئيدة، رأسه بحمرة قانية تكاد تسوّده، ثم يتدرّج جسمه بخفوت يعيد اللون إلى أصله.. قلتُ أخيراً لنفسي: هذا لون الدّم، هذا دمّ كيف يحصل ما يحصل في بيتي؟

تركتُ البيت لهدوء مطلق، سبقتني زوجتي في الخروج إلى عملها وتأخرّت كعادتي لقضاء بعض الشؤون، لم يكن غيرنا، أطفأتُ الأنوار، ثم أقفلتُ الباب خلفي؛ ومضيتُ..

هل كان ثمّة ما يريب؟

لا أذكرُ أنّي لاحظت على حياتي في المدة الأخيرة ما يربكها أو ينغّص صفوها، لا أعداء لي، ولست ممّن ينساق إلى مغامرة جديدة أو يتورّط في مشكلة عارضة، ولا علاقات لي إلا في الحدود الواضحة، حتى زوجتي لم تكن من نوعية النساء اللاتي يعقدن شبكات معارف كثيرة، كانت مجرّد امرأة مملوءة بالهدوء، قليلة العلاقات، ميّالة إلى العزلة، منكفئة على نفسها إلى الحدّ الذي جعلني أنصح لها في أكثر من مرة:

- ما دمتُ أتأخر كثيراً في الخارج، فباستطاعتك التعرّف إلى الجارات..

رفضت كل عرض، وأشاحت عن كل علاقة غير ذات جدوى بقولها:

- خلّينا من تكسار الراس ..

لأشهد لنفسي إذاً أننا بلا أعداء، وأنّ ما يحدث إنما يحدث بطريق الخطأ، وأنّ الدّم الذي مازال يزحفُ نحو موطئ قدميّ ويحيط حذائي، ثم يتجاوزه.. لا شأن لي به..

ولكنه في بيتي، على العتبة أقف، بيني وبين الباب أذرع خوف ورعشات سؤال، ثم هذا الصّهد الذي يلفحني بكل حقد النار، تآكلٌ سوف ينتهي إلى غايات الرماد، وهول صوت يهتك كل شيء ويفضّ الصمت الذي بقيتُ فيه لبرهة وأنا أتأمل منظر الدم الزاحف نحوي، ثم اندفاع الدخان من كل منفذ، ليتكاثف بسواد يحجب الرؤى، ويدٌ تدفعني بقسوة، وصوت كالشخير:

- الشظايا.. ابتعد عن الشظايا..

انزلقتُ، أحسستُ بلزوجة سرعان ما تحوّلت إلى بلل، ضاع صوتي في بحّة اختناق، لا أمل الآن.. جسدي مسجّى على الأرض الباردة اللزجة، رائحة هلاك تتمطّى في الدنيا وتشعل الأخضر واليابس، وقال أحدهم وهو يدفع جسدي بعيدا عن الدماء:

- شرارة كهرباء بإمكانها أن تحدثُ كل هذا الخراب..

وسألتُ والسعال يحاصرني:

- زوجتي في الداخل؟

لم يأبه، يده الثقيلة تحوّلت في لحظة من الدفع إلى السحب، كان يجرّني في قلب ظلام موحش، وكنتُ أحسّ بالبلل وقد اخترق ظهري، ثم أبواق سيارات تملأ السمع بنعيقها المتطاير من داخل بيتي، تساءلتُ بحيرة.. كيف أمكن لها أن تدخل البيت؟ ومن أين؟ فالباب موصد لحدّ اللحظة التي هممتُ

فيها بفتحه، كيف يحدثُ كل هذا مجتمعاً فلا أملك معه حتى معرفة مصير زوجتي؟.. ومن غضبي ركلتُ الرجل بما بقي فيّ من قوة، وعدت أزحف بعد أن تخلّصت من قبضة يده.. يجبُ أن أرى..

تهشّم الباب في فوضى اللهب، وتآكل كل ما يعيق الرؤية.. لا أثر لزوجتي في الداخل.. بعينين معصورتين بالدخان كنتُ أبحثُ، لم أتجاوز العتبة خوفاً من وقوع الثريات على رأسي، لكنّ الصراخ يملأ البيت والردهة، ورائحة دماء متفشّية في الفضاء، ولوّحت الأيدي مستغيثة من وراء الزجاج، فيما راحت أخرى تضرب بقبضاتها الواهنة الأبواب، كيف أمكن لكل هذا أن يحدث؟ وكيف اتسع بيتي على صغر حجمه لكل هذا الدمار؟ وانفلت الشاب الذي كنتُ أرى وجهه دوما يطل من وراء زجاج القطار من لوحتي المعلّقة على جدار الصالون، وهرول نحوي، فتلقّفته في حضني، وأنا أسأل:

- كيف حدث كل هذا؟
- القطار.
- ما به؟
- خرج عن السّكة.
- كيف؟
- كما ترى..
- أليس للأمر علاقة بشرارة كهرباء أو تسرّب غاز في البيت؟

وقبل أن يتفوّه بكلمة أخرى، دفعني رجلٌ بدا من زيّه أنه شرطي، وقاد الشاب إلى الخارج..

بقيت أتابع اللهب وهو ينهش القطار، وتناهى إلى سمعي بعض الأنين المتقطّع الذي راح يخفتُ شيئا فشيئا، فيما تداعت الأيدي، واستسلمت الأجساد..

كان القطار قد خرج عن السكة كما روى لي الناجي الوحيد من حادثة اللوحة، أما زوجتي فتصرّ على أنّ الحريق لا علاقة له بتلك الرواية، فاللوحة في أصلها لقطار خارج عن سكته، وحين يحتدّ الكلام بيننا، كانت تسحبني من يدي إلى الصالون لأرى بأمّ عيني أنّ القطار لا يزال يحترق، وأنّ الناجي الوحيد الذي يبدو مهرولا نحونا لم يخرج من إطار اللوحة بعد..

شيء من الخوف

حجزتُ المكان عند المنعطف، في عُرْفِنَا نحن باعة الأرصفة.. إن تردّدت على المكان أكثر من مرة فهو لك، ملكك، مفتاح رزقك الذي يستعصي على غيرك حمله، وهكذا كان ..

عرضتُ بضاعتي هنا أكثر من مرة، والمكان اخترته صدفة، لنقل بتلك الحاجة التي تدعوك من غير أن تفهم أسبابها، ودعوة المكان لي كانت منذ أيام، لا أكاد أحدّد معرفتي باليوم، هل كان يوم سبت أو أحد أو اثنين.. دعني أزد احتمال يوم الجمعة صباحًا أيضا رغم أنّ هذا اليوم هو يوم عطلة وراحة لكل النّاس، لكنه كان بالنسبة لي على الأقل يوم خير ورزق، لنتفق على صباحه فقط، لكنني في النهاية لا أكاد أجزم أيّ الأيام كان، فقط أستطيع أن أقول إنه كان يوما باردا، شديد القسوة، غشيت سماواته سحب بيضاء مالت حوافها إلى تلك الزرقة الداكنة التي تتوعّد بالمطر الغزير البارد ...

هكذا كان، كلمح البصر.. راحت حبّات المطر تتسارع إلى الأرض، بدأت بإيقاع رتيب، ثم سرعان ما زادت حدّتها، في الأول صمدتُ كغيري من الباعة، قلت لنفسي: مثل بضاعتي لن يؤذيها المطر بل إنه قد يزيدها تألقا ولمعانا.. عليّ أن أحمي نفسي فقط، فانسحبت بجسدي المتهالك إلى حافة جدار حتى يرد المطر عن ظهري، عدّلتُ وضع الطّاقيّة على رأسي، سحبتُ

حوافهـا أكثـر مخفيًـا أعـلى أذنيّ، ولففـتُ الكاشبوسـيار الأسـود حـولي، واضعًـا راحـة يـدي اليمنـى عـلى ياقتـه لأرد الريـح البـاردة عـن صـدري فقـد كان بـلا أزرار، ورحـتُ اسـتلهم القـوة والعزيمـة مـن صـبري عـلى توقـف المطـر بعـد حـين.

لأسـباب يعلـم سرّهـا الخالـق دام المطـر، ذوّب صـبري كقطعـة سـكّر، وجـرف كل الباعـة الواحـد تلـو الآخـر إلى هـروب يائـس.. لنفـسي قلـتُ: مـا هروبهـم إلاّ لأجـل بضاعتهـم، أمـا بيضـاتي فـلا خـوف عليهـن، ربـما كان هـذا هـو عزائـي الـذي أبقـاني، سـيكفّ المطـر بعـد حـين وتعـود الدنيـا إلى وضعهـا، يـشرق الصفـاء وتـدبّ الحركـة، بقـدرتي أن أصمـد أكثـر حتـى لا أعـرّض نفـسي لتعـب أنـا في غنـى عنـه، جمـع حبّـات البيـض عـلى اختـلاف أحجامهـا ووضعها في صنـدوق قـد يعرّضهـا للخلـط كـما يعرّضهـا للكـسر، خاصـة وأنـا أدرك أنّ القليـل مـن التّبـن الـذي أفترشـه لهـا لـن يـرد عنهـا التّلـف لـو زادت حـدّة الحركـة، ثـم همسـت لقلبـي: أتكـون الدنيـا بهشاشـة بيضـة؟ غـير أني تجـاوزت الجـواب إلى المطـر الـذي راح ينهشـني، فتتـسرّب سـيوله بحركتهـا البـاردة إلى جسـدي، وطفقـتُ أبحـثُ بعينـين باردتـين ووجـه حجـري عـن أيّ كائـن يمـلأ المـكان معـي.. لا أثـر.. فقـط المطـر وقـد خـرج عـن كل قـدرة احتـمال، نفـد الصـبر إذن، والجـدار الـذي كان يحمـي ظهـري بـدا أنـه خيّـب ظنـي كـما يخيـب ظننـا في أشـياء الحيـاة الكثـيرة، وجدتنـي محـاصرا وحبّـات البيـض أمامـي تغتسـل فيزيـد لمعانهـا المغـري، لكـن الخـوف الـذي كان ينهـش روحـي هـو أنّ معظمهـا لا تفـترش التّبـن، كومـة واحـدة قـد اسـتأثرت ببعـض منـه، كـسر بيضـة تعنـي خسـارة كبـيرة، والمطـر الـذي خـرج عـن صوابـه إلى حافـة الجنـون يدعـو يـدي السـلحفاتية

أن تكـون بتلـك العجلـة التـي قـد تعـدم بيضـة أو اثنتـين، ثـم سـوف يكـون بعدهـا الجـري الـذي لـن ينجينـي مـن محنـة تلامـس البيضـات ببعضهـن، في كل خطـوة احتـكاك، وفي كل احتـكاك احتـمال كسر، وفي كل كـسر خـوف، نسـيتُ نفـسي، نسـيتُ مـا تعرّضـت لـه مـن بلـل، والمطـر يزيـد مـن توحّشـه، انحنيـت أخـيرًا لجمـع بضاعتـي بحركـة تليـق بعمـري، لا جـري.. قلـتُ بينـي وبـين نفـسي حتـى لا تتعـرّض البيضـات لأيّ أذى، لففـتُ الأكيـاس بحـذر، ووضعتهـا في صندوقـي الخشـبي ومشـيت تحـت المطـر..

في ذلـك اليـوم الـذي لا أحفـظ لـه تاريخـا، حجـزتُ مـكاني الجديـد عنـد المنعطـف، كان الأمـر مجـرّد صدفـة خلقهـا هـروبي مـن وابـل المطـر، لا يجـبُ نسـيان مـا أخبرتكـم بـه أيضـا مـن أنّنـا نحـن باعـة الأرصفـة – وهـذا عُرفنـا – إن حـدث وتـردّد أحدنـا عـلى المكان عينـه أكثـر مـن مـرة فهـو لـه، ملكـه، مفتـاح رزقـه الـذي يسـتعصي عـلى غـيره حملـه.

* * *

آه نسـيتُ أن اسـتثني مـن ذلـك رجـال الشرطـة، هـؤلاء هـم وحدهـم مـن بإمكانهـم أن يسرقـوا مفتـاح رزقـك بخفـة يـد القانـون لـو أرادوا ذلـك.

أضغاث حبّ

لا شيء يوحي بيننا بالحبّ، انكسرت الرغبات القديمة مخلّفة وراءها شظايا الحقد، لم يبق من وجه الماضي غير ما تقطّره الذاكرة في وحشة هذا الجدب.

كأنّنا انتهينا، لكنها تصرّ بما ملكت من دهاء الأنثى أن تُبْقِي على وهم حبل الوصل الممدود تحسبا للقادم، وكلّما هممتُ بغلق الباب الموارب بيننا، أسرفت في العتاب:

- هل تهون عليك العشرة بمثل هذا اليسر؟

وككل مرة انصاع بذلك الضعف الذي جُبِلَ عليه الحبّ، تتراجع يدي عن اغتيال اللحظة، ويتساءل قلبي بحرقة.. هل تجبر كسور الروح؟

ثمّة أمل ميّت، جثّة ترقد على سرير احتضارها رغم محاولات الإنعاش التي تتلقّاها بين الفينة والأخرى، صرتُ أعرف كل شيء، بإمكاني أن أرسم الاحتمال الذي تضعه نصب عينيها، عليها أن تؤخر فكرة التدمير إلى الوقت الذي تبني فيه وجه مستقبلها، سَتُبْقِي على وهن هذا الخيط لنتيجة الشكل الذي سوف ترسو عليه، وعليّ بالمقابل أن أكون الهامش الذي يفسّر متن حياتها منتهياً به إلى المعنى الذي تريده.

أيّ معنى يبقى للكائن في خضم هذا الغياب الذي راح يمتد بحججها؟..

- وقتي لم يعد ملكي..
- أنا..

يخنق البكاء اللحظة، وتشتعل هي كالنار التي لا تبقي ولا تذر، في العتاب راحة للنفس وطمأنينة للقلب وبعض الأمل، لكنها تزمجر كالعاصفة، ففي عتبه ظلمٌ لها ولحياتها الجديدة:

- هكذا ظروفي.. أنت لا تعرف ما أعانيه.

بقلبه يعرف، لا شيء يستغلق عليه رغم أنها تكتم عنه، في قدرة الحبّ أن تكون له تلك الأعين الروحية، لتكن قوة البصيرة التي تفتح مغاليق أبواب المجهول، وتُسْقِطُ عن الكائنات أوراق التوت معرّية إيّاها من كل ستر، تماما مثلما تعرّت له ليلتها، فاض الجسد عن حاجة الجوع، لاحت السمرة تحت الضوء الواني، اخترقت رغبته كما يخترق السهم طريدته، على تراب السرير لمعت الأعين بالشّغف والحاجة، تطاولت الشهقات كأشجار صفصاف، أثمرا معاً في لحظة سحرية، فقالت من وراء ثقل خدرها:

- كم أتمنّى لو تمتد ليلتنا هذه.

احتواها ببسمته، لثم يدها بحنان عاشق، ثم همس:

- كم أتمنّى ذلك أيضا.

كان التعب يقطف ثمار قدرته، فاستسلم إلى دعة النوم، لفّته هناءة اللحظة، وشعورٌ غامرٌ بأنّ من تقاسمه الفراش زوجه، ليس بإمكانه الآن أن يفوّت فرصة معرفة كل شيء حتى وهي متمترسة وراء تلال الكذب، ففي روحه أجنحة الكشف وفي قلبه نداء الحقيقة، وتظاهرت بالحبّ البارد في فوضى اختلافهما، فأدرك فتور حرارة قلبها بمغريات الدنيا، وكانت تصرخ ملء

الضجر كلما عتب عليها:

- العمل.. العمل..

ليس أمامه غير الإيمان بقضاء الحجّة وقدر واقعها الجديد الذي راحت تغرق فيه كما تغرق ساق في الوحل، أيمكن لها أن تتراجع بعد كل هذه الخطوات؟ وهل بقدرتها أن تصارحه بالحقيقة كاملة؟

- فيم تأخرّك كل هذا الوقت؟

ينداح في الجو نذير توتر، يذوب كل منهما في صمت أشيب، وتتساقط أوراق الحكمة والنضج عن لحظتهما، فتخرج عن صمتها إذّاك:

- أنت تعرف تراكمات العمل.

لم يحدّثها عن كابوسه، لم ينبس لها ببنت شفة عن جمر السهاد الذي يقلّبه ليلا على فراشه وهو يراها رؤى العين تمشي الهوينا نحو ذلك المكان الموحل، هل كانت تغرق بعيدا عن متناول يده؟ في عرض الوحل يجلس هؤلاء الرجال ببدلاتهم وربطات أعناقهم، حيث تدور الكؤوس وتعلو الضحكات، فيما تتحرّك هي بينهم كفراشة جريحة تتشظّى نظرتها بين رغبة الإقدام والإحجام، متسوّلة صفاء اللحظة التي تكشف لها الحقيقة من شرك الزيف.

والحقيقة أنّ هذا كابوسه، مجرّد وهم ليلي يقض مضجعه ويفسد مذاق حياته، فيسأل بقلب يائس:

- أيّ عمل هذا الذي يُبْقِيها حتى مطلع الفجر؟

- هذا هو عملي عليك أن تؤمن.

لم يكفر قط، مثلما كفر بهذا العالم، ليته انتهى إلى صدقها،

لكنها تقسم بأغلظ الإيمان أنّ حياتها منذورة للعمل ولا شيء غيره، وقال في عواصف خصامهما:

- لا أشكّ لحظة واحدة في خيانتك، ولكن..

ماذا وراء الصمت؟ والكابوس يتكرّر بالأحداث ذاتها، الليل والرجال والأضواء وصفحة الماء المنتهية إلى الوحل، شدّ ما تغيّرت حياتها، مزيداً من العلاقات والمعارف، وهذا الطموح الجارف الذي يوسوس لها بين كل حين وحين:

- أنتِ أكبر من علاقة حبّ يحكمها المجهول.

أما الحبّ فبإمكانه أن يخفت صدى صوته فيتحوّل مع الوقت إلى مجرّد علاقة صداقة، وكل وضع يلزمه الجديد حتى في عُرْفِ القلب، لا يمكن بأيّ حال أن تستمر في ظلمة علاقة تبدو كالكهف الذي بلا نهاية، وأبواب الاختيار مشرعة أمامها.. الشهرة والغد والمال، أما ماضي القلب فأحجية سرعان ما سوف تنتهي بموت الغول.

كيف تقتله إذن؟ كيف تفعل ذلك من غير أن تلطخ يديها بقطرة دم واحدة من روحه؟ وكيف تنجو من مخالب معرفته وهو يحلّق فوق سماواتها فيكشف أدقّ أسرارها؟ وكي تنحرف به عن هذه البصيرة إلى العمى، راحت تلاعبه كما تلاعب الهرّة فأرها، عليها أن تقتله ببرد الغياب، وشقة المسافة، ولعنة الانتظار، وليكن الوهم هو أداة موتهما معاً.

* * *

في رواية أخرى...

مـات بالحقيقـة، فقـد افتضحـت صـور الكابـوس، إذ تـراءت في فـوضى الضّبـاب الليـلي وهـي تلـوّح بيدهـا مـن قلـب اللجـة، وتسـتغيث بـما بقـي لهـا مـن نفـس، لكـن الرجـال الذيـن تحلّقـوا عـلى الشـاطئ أول الأمـر، عـادوا فتراجعـوا وهـم يحملـون الكـؤوس وضحكاتهـم تمـلأ الليـل.

حوار الموتى

دقّات الأقدام تبتعد شيئا فشيئا، أرهفُ السمع إلى ما بقي من آثارها في هذا السكون الذي راح يفرّخ في المكان، ولأنّ جاري بدا قبره جديدا بالمقارنة مع بقية القبور، فقد غالبني الطمع إلى أنسه، أمهلت نفسي الوقت الكافي لرحيلهم، ثم رحتُ أطرق على الجدار طرقاً خفيفاً يذكّر بالحياة والأحياء، ومثلما خمّنت جاءني رده، عدد دقاتي ذاتها لم تزد ولم تنقص، ثم أعقبها همساً لا يكاد يوحي بوجودنا، سألني: متى جئتَ؟ فقلتُ: اليوم مساءً، تركتُ كل من في البيت يبكي بحرقة، رأيتُ بعض من تخيّلت حزنهم عليّ يأخذون موتي على محمل التسليم، سمعت خشخشة نعالهم، همحماتهم، كتمانهم لكل صوت يخرج عن أصول الموت.. رنين الهواتف اللعينة مثلا وقد حرموني منه بدافع قداسة الجو، يا أخي أيّ قداسة تلك؟ربما فعلوا ذلك تقديساً للحياة ذاتها، ثم ما الحياة؟ أيّهما حقيقي؟ وأين العبث؟ وما العبث في أصله؟.. سمعتُ الصلوات، قالوا.. إنّي سوف أذهب إلى الله وسوف يواجهني بعاصفة من الأسئلة، وحين ضاق بسيل الحديث قاطعني متسائلا عن سبب موتي، فقلت بعقل نابه: لا شيء، هو المرض ذاته الذي يصاب به كل كائن.. مرض الحياة.. ضحك من عمقه وهو يقول: يا الله تخيّل إنه مرضي ذاته..
ثمّنت كلامه بالقول: ومرض غيرك أيضا لا أحد ينجو منه..

نفض عنه التراب العالق ببدلته البيضاء، وسألني:

- كيف أمكن لك فكّ خيوط هذه البدلة؟

- بالحركة، ظللت أتململ طيلة وقت نومي حتى تحرّرتُ.

ابتسم وسألني:

- كيف تحرّرتَ، ثم ما الحرية؟

- لا أعرف، الحقّ لا أعرف كيف جلبنا معنا هذا المستوى التافه من المعرفة إلى هنا؟

وسألني:

- ماذا تعني هنا؟

- غير الهناك؟

- وما الهناك؟

أتعبني فقلت له:

- انس الأمر..

وحين دعوته للنسيان، أسرّ لي بشوقه:

- لمن؟

- للأحياء.

- مثل من؟

- أبنائي زوجتي.

ركبتُ أجنحة التيه، وأنا أتأمل الفضاء الساكن، طيور المساء وهي تزقزق عائدة إلى أعشاشها، العشب الآيل لصفرة الموت، السياج الذي يفصلنا عن مدينتهم، بعض الأبقار السائمة في البعيد ترعى بكسلها المعهود، وصوته:

- وأنت؟

- لا.. لا أحسّ بأيّ شيء، بالعكس أنا مرتاح هنا لا أحد

يذكّـرني بتلـك الحيـاة، في طفولتـي فقـط أحببـتُ اللعـب، تعرّفـت إلى بنـت الجـيران، خلسـة كنّـا نلعـب، بعيـداً عـن أعـين الرقبـاء وفي غفلـة منهـم كنّـا نـمارس مـا ينكرونـه..

- وما ذاك؟

- قبلـة، ضمّـة، ثـم أحـسّ بالبلـل في سروالي أمـا هـي فتتمطّـى كقطـة بعـد كل لعبـة..

ولأنّ حكايتي أطربت قلبه، فقد سألني سيجارة..

- هل نسيتَ حديثهم هناك الأكفان لا جيوب لها..

- صحيح لكن نستطيع أن نجد الحلّ.

- كيف؟

- نمـضي إلى الطريـق المحاذيـة للمقـبرة، ونفتّـش عـن عقـب سـيجارة ألقتهـا يـد عابـر .

- يـا رجـل هـم يدوسـون سـجائرهم، فـلا يبقـى منهـا مـا يصلـح للتدخـين

- لا تكن متشائماً.

- انـس الأمـر لا يجـب أن نـبرح هـذه الدائـرة حتـى يـرى الله رأيـه فينـا.

- لم يهبط الليل بعد

- ولو، يجب أن نستعدّ.

قال بوجه شاحب:

- لم يبق معنا وقت للاستعداد، انتهت فرصتنا هناك.

- لا يأس مع رحمته.

- لكنّـي أبـدو فارغـاً لنفـسي، لا أحمـل معـي غـير هـذا الجـرح الـذي نـزف طويـلا ثـم توقّـف فجـأة.

مددت يدي كي أطمئن إلى جرحه، وقلتُ:

- لا تقلق فهو غير مؤذٍ على الإطلاق.

ثم سألتُ بدافع الفضول:

- كيف أصبتَ؟

- عشتُ طويلا، ثم لم أجد في الحياة ما أفعله، انتهى كل شيء إلى العجز والمقت، أحسستُ أنّ الحياة تتعمّد إفسادي، الضغط، السكري، أحيانا أعبر الشارع مُتَّكِئًا على عصاي، فتصلني أصوات باردة.. يا شيخ فوت.. نجوتُ أكثر من مرة من صدمات السيارات، كبر أبنائي، تزوجوا الواحد تلو الآخر، كأنّ الحياة قطعة رغيف نقضمها على مهلٍ، شعرتُ بها في يدي وهي تتناقص يوما بعد آخر، مللتُ، لا شيء يوحي بالمعنى إلا الله، فقد كنتُ أسمعهم يتحدّثون عنه في كل مكان، كان يحضر في التفاصيل الصغيرة والكبيرة، وكان يحضر في غياب كل شيء، حتى حين وقع الحادث وسقطتُ في الحمّام خيّل إليّ أني لقيته، ثم تطوّرت الأمور إلى مستشفى وسرير وبياض وأقراص وأمصال، كان الجرح يرعف، وكنت كدوريّ الشتاء الجائع الذي تطبق عليه كمّاشة فخّ، ارتجفت وخفت ويئست، لم أفهم لماذا تكالبت عليّ كل تلك الأعطاب وسلبت من يدي آخر قطعة من رغيف الحياة.

* * *

حـين التفـتُّ وجـدتُ الموتـى يجلسـون عـلى قبورهـم، كانـوا مثلنـا ينتظـرون، مصابـين بمـرض الحيـاة الـذي لا شـفاء منـه إلا بالموت.

الفهرس

الإهداء	05
الطريق	07
موت الذبابة	13
الساعة	21
باسم الله	22
النّمل	24
في البحث عنّي	27
الدخول والخروج	29
دماء الطين	31
الجرذ	33
القطار	35
كأنّه الحبّ	37
صورة وكتابة	39
الكلبة	41
الطريق إلى الرؤية	45
كش ملك	49
القصر	53
الساقية	54
ظلّ الموت	59
الجنازة	63
حديقة الله	67
ضوء بعيد	69
المعركة الأخيرة	72

غسيل 74
الرّجلان 78
حادثة لوحة 81
شيء من الخوف 85
أضغاث حبّ 88
حوار الموتى 93